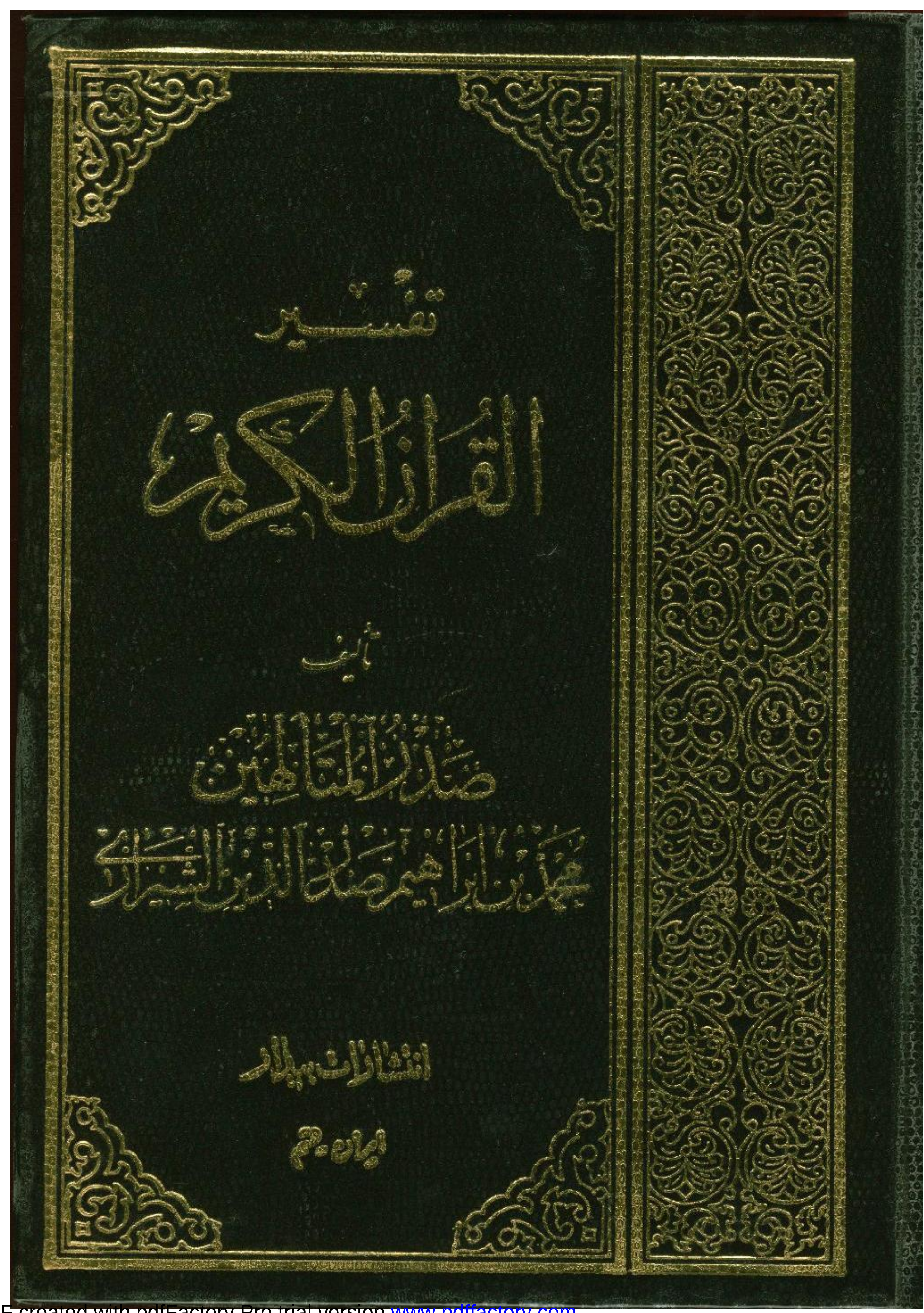


تفسير
القرآن الكريم
تأليف
صدر المتألهين
محمد بن ابراهيم صدر الدين الشيرازي
انتشارات بيدار
ايران - قم



تفسير آية النور

الله نور السموات و الارض مثل نوره
كمشكوة فيها مصباح المصباح فی زجاجة
الزجاجة كانها كوكب دری یوقد من شجرة
مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها
يضیء ولو لم تمسسه نار نور على نور
يهدى الله لنوره من يشاء و يضرب الله
الامثال للناس والله بكل شیء عليم

[٢٤/٣٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لواهب العقل والخير والجود ، والصلوة والسلام على نقطةدائرة الوجود ونكتة سر الله في كل موجود ، المقصود أولا ، المبعوث آخراً ،كان مشكوراً ، ولأنعم الله شاكراً ، محمد سيد أوليائه الذي ختم به ديوان الرسالة وتمّم به بنيان النبوّة ، وشيّد بوجوده مباني المجد وقواعد الفتوة ، وعلى عترته المطهرين وأهل بيته المتخلّصين عن أدناس البشريّة،الملتحفين بأرديةالمعارف الإلهية أفضل الصلوة وأكمل التسليمات .

وبعد :

فيقول الملتجي إلى باب ربّه الكريم محمــد المشتهر بصدر الدين بن إبراهيم : إن هذه نكات متعلقة بتفسير آية النور الذي قد ابتسم عن بدايع ألفاظه فمُ الأيام ، وانشرح بحسن نظمه صدر الأنام ، تبيّن الرشد بتبيانه ، و تبلج الحق من بيانه ، فحقيق أن يصرف العمرفي اقتباس لوايح أنوارهواقتناص شوارد أسراره . ولابُعد في أن يطلع أحد على ما لايطلع عليــه غيره ولكل نفس طالبة قسط من نور الله قلّ أو كثر ، ولكل قلب منكسر حظ من سر الله بطَن أو ظهَر ــ فسنَح للخاطر الذي خطرت فيه خطرات البلايا ، وظهر على

خدّه أثر من وقع عليه الرزايا ، حمداً لربّي وذمّاً للزمان وصبراً على الهموم و الأحزان ، وفرقة الأحباء والإخوان .

قد كنت أشفق من دمعي على بصري فاليوم كلّ عزيز بعدهم هانا

فشمّرت عن ساق الجد والاجتهاد ، وسعيت بكميش الأزار [1] لنيل هذا المراد على ماأنا فيه من قلّة البضاعة وقصر الباع ، والقصور في البضاعةوعدم المتاع ، وماأرى عليه الزمان من رثاثة حاله وركاكة رجاله ، مع أن لي قلبـاً قد نجـّدته الدهور وشـّوشته الأمور ، ومسـّته مضض العنـاء ، واعتراه شـّدة اللأواء .

إن كان لي بازمان بقية مما تسوء به الكرام فهاتها

فشرعت فيه سائلا من الله حسن التوفيق ، وبيده أزمة الفوز بالتحقيق .

---

(١) كميش الازار : أي مشمرة . مثل في الجد والتشمير .

قوله عزّ اسمه :

اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكوٰةٍ فِيهَا ـ الآية ـ

تمهيد

الإشارة في تحقيق هذه الآية يتمهّد بأن لفظ «النور» ليس موضوعاً ـ كما فهمه المحجوبون من علماء اللسان وأصحاب الكلام ـ للعرَض الذي يقوم بالأجسام وهو الذي عرّفوه بأنه «لابقاء له زمانين» وهو من الحوادث الناقصة الوجود، بل هذا النور أحد أسماء الله تعالى وهو منوّر الأنوار ومحقّق الحقائق ومظهر الهويات وموجد الماهيات .

ومطلق «النّور» يُحمل عند الجمهور على معاني كثيرة بعضها بالاشتراك وبعضها بالحقيقة والمجاز، كنور الشمس ، ونور القمر ، ونور السراج ، و نور العقل ، ونور الايمان ، ونور التقوى ، ونور الياقوت ، ونور الذهب ، ونور الفيروزج .

وأمّا عند الإشراقيين ومن تبعهم ـ كالشيخ المقتول شهاب الدين الكاشف لرموزهم ، والمُخرج لكنوزهم والمدوّن لعلومهم ، والمبيّن لفهومهم ، و

المبرز لمقاماتهم، والشارح لإشاراتهم ـ فهو حقيقة بسيطة ظاهرة لذاتها مظهرة لغيرها فعلى هذا يجب أن لا يكون لها جنس ولا فصل، لعدم تركّبها عن الأجزاء، فلا لها معرّف حدّي، ولا لها كاشف رسمي، لعدم خفائها في نفسها، بل هي أظهر الأشياء، لكونها مقابلة الظلمة والخفاء تقابل السلب والايجاب ـ فلا برهان عليه بل هو البرهان على كلّ شيء.

لكن الخفاء والحجاب إنما يطرءان لها بحسب المراتب، كمرتبة النّور القيّومي، لغاية ظهورها وبروزها، فإن شدة الظهور وغلبة التجلي ربما صارتا منشأي الخفاء للمتجلي لفرط الظهور، وعلى المتجلّى له لغاية القصور، كما يشاهد من حال عيون الخفافيش عند تجلي النور الشديد الحسّي الشمسي على أحداقها، فإذا كان الحال هكذا في النور المحسوس، فما ظنّك بالنور العقلي البالغ حدّ النهاية في الشدة والقوة.

وكان النور عند أكابر الصوفية أيضاً عبارة عن هذا المعنى ـ كما يستفاد من مصنّفاتهم ومرموزاتهم ـ إلا أنّ الفرق بين مذهبهم ومذهب الحكماء الإشراقيين أنّ النور وإن كان عند أولئك الاكابر حقيقة بسيطة إلا أنها مما يعرض لها بحسب ذاتها التفاوت بالشدة والضعف، والتعدد والكثرة بحسب الهيئات والتشخصات، والاختلاف بالواجبية والممكنية، والجوهرية والعرضيّة، و الغنى والافتقار.

وأمّا عند هؤلاء الأعلام من الكرام، فلا يعرض لها في حدّ ذاتها هذه الأحكام، بل بحسب تجلياتها وتعيّناتها وشؤوناتها واعتباراتها، فالحقيقة واحدة والتعدد إنما يعرض بحسب اختلاف المظاهر والمرائي والقوابل، ولا يبعد أن يكون الاختلاف بين المذهبين راجعاً إلى التفاوت في الاصطلاحات وأنحاء الإشارات، والتفنّن في التصريح والتعريض منهم، والاجمال والتفصيل مع

الاتفاق بينهم في الدعائم والأصول .

وماذكره الشيخ محمد الغزالي في مشكوة الأنوار موافق أيضاً لقول أئمة الحكمة وهو قوله : «النور عبارة عما به يظهر الأشياء» .

تذكرة تفصيلية

إن لقوله تعالى : ﴿اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وجوهاً كثيرة من المعاني:

الأول: ماذكره أكثرمفسري الإسلام وعلماءالعربية والكلام ـ ومستندهم قرائة أمير المؤمنين عليه السلام حيث يُروى أنه قرء ﴿اللهُ نوَّر السمواتِ والأرْضَ﴾ ـ بصيغة الماضي ـ يعني : ذو نور السموات، وصاحب نورالسموات ـ على مجاز الحذف ـ أو الحق نورهما على سبيل التشبيه .

قال صاحب الكشاف : «شبّهه بالنور في ظهوره وبيانه، كقوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٢/٢٥٧] أي : من الباطل إلى الحق، وأضاف النّور إلى السموات والأرض لأحدمعنيين : إمّا للدلالة على سعة إشراقه وفُشُو إضائته حتى تضيء له السمـوات والأرض ، وأمّا أن يراد «أهل السموات والأرض» وأنهم يستضيئون به» ـ إنتهى قوله ـ .

فعلى هذا يكون معنى قرائة صيغة الماضي : أن الله نشَر الحقّ وبسطه فـي السموات والأرض . أو نوّر قلوبَ أهلها بنور الحق .

وفي هذا الوجـه يكون المراد من «مثَل نوره» صفةُ الحق العجيبـة الشأن التي بثّها الله في العالَم . وهدَى الخلقَ بها إلى طريق الخير، وتكون التشبيهات التـي وقعت بـ «المشكوة» و «المصباح» و «الزجاجة» و «الزيت» كلها لإثبات ظهور صفة الحق ووضوحها، كأنّه قيل: الحق الذي به هدى الناس كنورفي سراج اشتعل مصباحه بزيت صاف ، كان في قنديل زجاجي شفاف في غاية اللطافة،

بحيث يكون في لطافته وزهرته شبيهاً بإحدى الدراري المشهورة، كالمشتري والزهرة، وكانت الزجاجة، في كوّة غائرة في جدار غير نافذة، حتى لا ينشر نور المصباح، فلامحالة يكون النور في غاية الإضائة والظهور، فكذلك الحق المنبثّ في العالَم المنتشر في الخلائق.

ولا يبعد أن يراد بالنور ـ في هذا الوجه ـ القُرآن، لأنّه يبيّن الحق، يعني هدى الله الخَلق بكلامه المتين الذي هو حقّ مبين، وقد سمّاه الله «نوراً» حيث قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ [٤/١٧٤] لأن القرآن مظهر نور الحق والعرفان، ومنوّر قلوب أهل الايمان، فيكون الحقّ نوراً والقرآن مثله، وقد شبّه بـ«المصباح» فالمصباح كلام الله، و«الزجاجة» قلب العارف بأنوار معانيه، و«المشكوة» صدره، و«زيته» إمداد الفيض الإلهي الحاصل من الشجرة المباركة النبوية والنشأة المقدسة المصطفوية، التي لكمال اعتدالها وجامعيّتها للنشأتين وتجرّدها عن العالمين، غير مخصوصة بشرق عالَم الأرواح ولا بغرب عالَم الأشباح، بل جامعة للطرفين، ومرتفعة عن الأفقين، وإمداده وتنويره للقلوب بحيث يكاد أن ينوّرها ويكمّلها قبل أن يستنبطوا المعارف من الكتاب بدقّة عقولهم ويقتبسوا أنوار العلوم من مشكوة صدور المعلمين والمذكرين، فلغاية بسط فيض الحق وشدة إنارته لقلوب السالكين والمجذوبين، ينوّر قلوبهم و يضيء أرواحهم وإن لم تمسسه نار التعليم البشري، أو نار الدُهن المتوقّد من زنْد الطبع الزكي ومقدحة الفكر.

* * *

الوجه الثاني: مايوافق طريقةَ قدماء الصوفية وأئمّة السلوك والتصفية، وهو المفهوم من فحوى الآية الكريمة. ومستندهم قرائةُ عبد الله بن مسعود كما ذكره الواحدي في الوسيط رواية عنه أنه قرء: «اللهُ نور السموات والارض

مثَل نورِه في قلب المؤمنِ» .

وعلى هذا الوجه يكون المراد من النور المذكور ماروي عن النبي ﷺ[1] «إنه لما نزلت آية : ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِن رَّبِّهِ﴾ [٣٩/٢٢] وسئل عنه : «ما معنى هذا النور ؟» فقال ﷺ : «إن النور إذا قذف في قلب المؤمن انشرح له الصدرُ وانفسح » قيل : «فهل لذلك من علامة ؟» قال : «نعم : التجافي عن دار الغرور ، والإنابةُ إلى دارِ الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله» .

فعلى هذا شبّه اللهُ نورَ قلب المؤمن بالمصباح ، لأن المصباح قد حصل واستنار من نور آخر ، فكذا هذا النور قذف في قلبه وحصَل واستنارَ من النور المطلق الإلهي والوجود القيّومي ؛ والقلب بمنزلة المشكوة ، والأحوال و المقامات الواردة فيه بإلهام الله المحصّلة الممدّة لهذا النور بمنزلة الزيت ، و الأعمال والمعاملات الكثيرة البركات بمنزلة الشجرة المباركة ، ولكونها حاصلة بين شرق القلب وغرب البدن غير مختصّة بأحدهما ـ لا بالقلب كالعلوم العقلية المحضة ، ولا بالبدن كالأفعال الشهويّة والغضبية ـ فلا يكون شرقيّة ولا غربية ، والروح النفساني بمثابة الزجاجة .

فيكون نظم عن هذا الوجه : مَثَل نور هداية الله في قلب المؤمن كمصباح واقع في زجاجة روحه النفساني، الواقع في مشكوة قلبه ، يضيء المصباح من زيت الأحوال والمقامات التي تكاد تضيء في باطن وجود السالك ، وإن لم تمسسه نارُ التجلي ، وهي منبعثةٌ من شَجرةِ الأعمال الصالحة المباركة ، و هذا النور الأخير الذي هو نتيجةُ الأعمال الصالحة وميراث المعاملات الخالصة مضاعَف من النور الأول الذي نور الهداية الواقع في البداية الداعي إلى

---

(١) الدر المنثور : ٥/٣٢٥ .

العبودية والطاعة ، فإذا ضمّ نورُ النهاية إلى نور البداية يكون نوراً على نور.

* * *

الوجه الثالث : ماذكر متأخّروا الصوفية موافقاً لأصحاب المكاشفات و أرباب الأذواق والإشراقات ، وهومبنيّ على قواعد الإشراقيين وحكماء الفرس والأقدمين ، ويطابقه الحديث النبوي ﷺ[1] حكاية عن معراجه حيث سئل عن «الرؤية» فقال : «نور إنّي أراه» أي هوتعالى نورفيمتنع تعلق الرؤية به تعالى فاطلق النور عليه تعالى .

وقد أشرنا إلى تحقيق مذهبهم في النور، وتوضيحه : أن النور المحسوس إنما يطلق عليه هذا اللفظ لكونه ظاهراً بذاته ومُظهِراً لغيره،وأماخصوص كونه محسوساً بالحسّ البصري و كونه مُظهِراً للمبصَرات فلامدخلية له فيما يوضع له لفظ «النور» فليس نفس النور المحسوس معنى هذا اللفظ ومفهومه ، بل هو أحد موضوعات هذا اللفظ ، حتى أنه لو وجد في هذا العالَم شيء آخر لـه هذه الخاصية يطلق عليه اللفظ ، ونظيره ماذكر في معنى الميزان من أن معناه «مايوزَن به الشيء» سواء كان له عمود و كفّتان أم لا ، لكن غلب استعماله في هذا العالَم على ما له عمود و كفّتان .

فعلى ذلك يكون اطلاق «النور» عليه تعالى من جهة أنّه مصداق معناه وموضوع مسماه ، لأن ذاتـه ظاهر بذاتـه مُظهر لغيره مطلقاً ، ولهذا اصطلح الإشراقيون على إطلاق نور الأنوار عليه تعالى .

و «النور» مع أنه أمر ذاتي غيرخارج عنذوات الأنوارالمجردة الواجبية والعقلية والنفسية ،إلاأنه متفاوت في الكمال والنقص متدرّج في الشدة والضعف

---

(١) الترمذي : كتاب التفسير ، سورة النجم : ٣٩٦/٥ . والمسند : ١٥٧/٥ - ١٧١ .

واطلاقه على الذوات النوريّة على سبيل التشكيك ، إذ لم يقم برهان على استحالة كون الذاتي مقولا على أفراده بالتشكيك ، وهكذا حقيقة النور لها مراتب متفاوتة في القوة والضعف ، والكمال والنقص ، وغاية كماله النور الإلهي ـ وهو النور الغني ـ ثمّ الأنوار العالية المنقسمة إلى العقلية و النفسية ، ثم الأنوار السافلة المنقسمة إلى الأنوار الكوكبية والعنصرية .

والحقّ أن حقيقة «النور» و«الوجود» شيء واحد ، ووجود كل شيء هو ظهوره ، فعلى هذا يكون وجود الأجسام أيضاً من مراتب النور ، لكن الإشراقيين زعموا أن الأجسام غير ظاهرة بذواتها ، بل بالنور المحسوس العارض ، ولعل السرّ فيه أن الموجود من الأجسام هو خصوصيات صوَرها النوعية ونفوسها وهيئاتها التي هي من باب الوجود والنوريّة ، دون موادها و كميّاتها ، التي هي كضلال ممدودة لاوجود لهاـ تأمل فيه وسيأتيك مزيد توضيح ، وتحقيق هذه المباحث يحتاج إلى مجال أوسع ولايعلمها إلا البارعون في الحكمتين مع زوائد ألهمهم الله بها .

فعلى هذه القواعد يكون معنى قوله :﴿اللهُ نُورُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ﴾ بمنزلة معنى قولهم : «نور الأنوار» و «وجود الوجودات» لما علمت أن حقيقة كل شي هو وجوده الذي هو نوريته ، فـ «زيد» مثلاً في الحقيقة هو وجوده الخاص ونور هويته الذي به يكون ظاهراً بذاته مظهراً لغيره .

لايقال : إنه كيف يكون النور الممكني ظاهراً بذاته ، مع أنه يحتاج في وجوده إلى موجد يفيد له الوجود والنورية ؟

لأنا نقول : على قاعدة الإشراقيين تكون الأنوار الجوهريّة والعرَضيّة مجعولة بالجعل البسيط الإبداعي ، فالجاعل لايجعل «النور» نوراً ـ عندهم ـ ولايفيد النورية لما ليس بحسب جوهره و ذاته نور ، بل يفيد نفس الأنوار و

ينشئها ، فقولنا «زيد موجود» عندهم بمنزلة قولنا : «زيدٌ زيدٌ» في أن القضية ضرورية ، إلا أن الفرق بينه وبين قولنا : «الواجبُ موجودٌ» أن هذه ضرورة أزلية ، وهي ضرورة ذاتية ـ وبين الضرورتين قد تبيّن الفرقُ في علم الميزان ـ والإمكان في الوجودات معناه سلب الضرورة الأزلية ـ لا سلب الضرورة الذاتية ـ فلا ينافي هذه الضرورةُ الافتقارَ إلى العلة الجاعلة .

ـ وبالجملة ـ فالسموات والأرض عبارة عن وجوداتها الخاصة وأنوارها المتعيّنة ، فهي بالحقيقة أنوار متفاوتة المراتب ، والله تعالى أشدّ مراتب النور وأجلّ درجاتها ، فيكون نور السموات والأرض بمنزلة نور الأنوار وفلَك الأفلاك .

وإذا سيق الكلام على طورهم يكون المشبّه بـ «المصباح» هو النور المتجلي على جميع الحقائق الإمكانية ، وبـ «المشكوة» هي الماهيات السفلية ، وبـ «الزجاجة» الماهيات العلوية ، وبـ «الزيت» النفَس الرحماني الذي هو الوجود المنبسط عن الحق على الخلق ، والضوء الفائض منه على قوالب الأشياء وهيا كل الأرض والسماء ، في سلسلة البدو الإبداعي المسمى بـ «الفيض الأقدس » ، وبـ «الشجرة المباركة» الوجود والنور الفائض منه علـى المركبات والممتزجات حسب أوعية القابليات وقامة (فاقة ـ ن) الاستعدادات في سلسلة الرجوع الاستعدادي المسمى بـ «الفيض المقدّس» ووجه تشبيهه بالشجرة واضح ، لأنّه ذو شُعب وجَهات مختلفة ، وشجون وأفنان متكثّرة ، وهذا الفيض غير مختّص بشرق الأحدية المحضة ، ولا بغرب الأعيان والماهيات .

فنظم الآية على هذا الوجه : صفةُ نورِ الوجود الفائض من نور الأنوار والموجود الحقيقي ـ الفائض على الممكنات ـ كمصباح مشتعل في زُجاجة حقائق الأرواح العالية والجواهر النورية العقلية التي يتنوّر به مشكوة الجواهر السفلية

والبرازخ الجسمية، واشتعال ذلك المصباح من زيت النفَس الرحماني المنبسط على مراتب الموجودات ، وهو لغاية لطافته وقُربه بمنبع الخير والجُود ومعدن النور والوجود يكاد يفيض الوجود والنوريّة على الأشياء ، وإن لم تمسسه نارُ الفيض الأقدس والمقدّس .

والزيت المتوقّد من شجرة مباركة ـ هي الفيض المقدّس ـ الغير المختصّ بشرق الأحدية ، ولا بغرب الأعيان ، وهذا النور المتجلّي على حقائق الأشياء نورٌ على نور ، لأنه نورٌ عالٍ واجبي، مفيض للنور السافل الممكني ، يهدي اللهُ لنورِهِ ـ أي لتجلي وجوده القيّومي ـ من يَشاء ، فيتجلى له ويخرجه من ظلمة العدم البحت إلى نور الوجود الصِرف .

وللآية وجوهٌ نفيسةٌ أُخرى ، سيرد عليك بيانه إنشاء الله عند تحقيق معاني ألفاظها مفصلة ، فانتظرها مقتبساً لأنوارها ، مجتنياً لثمارها .

تفريع

فعلى الوجهين الأخيرين من هذه الوجوه الثلاثة لا يكون إطلاق النور على الواجب تعالى على سبيل التجوّز والتشبيه ـ كما ذكره متكلّموا الإسلاميّين و جمهور المفسرين ، من أنه شبّه الحق بالنور ، أو أُريد بالنور هيهنا المنوّر . على أنهم لو تفطّنوا بمعنى هذا المشتقّ لحكَموا أنّ كونه تعالى منوّراً بالحقيقة مما يستلزم كونه نوراً بالحقيقة، وذلك لأنّ كل فاعل بالذات لمعنى كماليّ وجوديّ لابدّ وأن يوجد فيه ذلك المعنى الكمالي ـ إذ المعطي للكمال لا يكون قاصراً عنه كما حكَم به الوجدان وطابقه البرهان ـ فإذا وجد فيه معنى النور فإما أن يكون عين ذاته أو زائداً على ذاته .

والثاني يوجب افتقاره تعالى إلى سبب يفيض عليه معنى النور ، لأنّ

الاتصاف بمعنى زائد إنما يكون بجهة القبول والاستفادة ، وهو غير جهة الايجاد والإفادة ، فلو كان ذاتُه منوّراً لذاته لزم أن يكون ذاته قابلا وفاعلا فلا يكون بسيطاً حقيقياً ــ وقد ثبت بساطته وأحديّته وتقدّسه عن شوائب التركيب كلها ــ و هذا خلف ، وأيضاً يلزم أن يكون ذاته أنور من ذاته ـ وهو محال . و إن كان مبدء نورانيته غير ذاته ــ وغير ذاته يكون ممكناً من الممكنات ــ فيلزم افتقار الواجب إلى الممكن في صفة كمالية .

ومن أنكَرَ كونَ النور كمالا للموجود بما هو موجود ، فليداوِ عقلَه إن كان متوقّفا ، وإن كان مكابِراً فالله يجزيه جهنم خالداً فيها .على أنّ من تأمّل عَلِم أن الوجود والنور متحدّان في المعنى والحقيقة ومتغائران في اللفظ ، ولاشك أن الوجود خير و كمال لكل موجود من حيث هو موجود ، والواجب بحت الوجود فيكون محض النور .

فقد ثبتَ وتحقّق أن النور نفس حقيقة الواجب الوجود جلّ مجده .

فصل

وأما معنى إضافته إلى السموات والأرض فهو بمنزلة قولك : «نور الأنوار» و «وجود الوجودات» فإن وجود كل شيء عبارة عن نور به يظهر ماهية ذلك الشيء وذاته ، فالله منشىء الأنوار بنفس ذاته النورية وجاعلها جعلا بسيطاً ، مفاده ترتّب ذات المجعول وهويته على ذات الجاعل وهويته التي هـي عين إنيـّته، فعلى هذا كما أن ذاته موجد الموجودات ، فكذلك مشيّء الأشياء ومذوّت الذوات .

ثم لما كان ذاته موجد ذات كل ممكن ليست إلا وجوداً خاصاً به يوجد الماهية وبه يطرد العدم عنها ويتصف بالموجودية المصدرية عند العقل ــ لما حقّق في

مظانّه أن المتأصّل في التحقق هو وجود كل شيء الذي هـو حقيقته ، والماهية حالـة انتزاعية عقلية منصبغة بصبغ الوجود ، منوّرة بنوره ــ فموجِد الأشياء بالحقيقة موجِـدٌ لوجوداتها ومنشيها وجاعلها، إنشاءاً بسيطاً، وجعلا مقدّساً عن التركيب غير مستدع لأمرين : مجعول ومجعول إليه .

ثمّ إذا كانت موجودية الأشياء ــ كما علمتَ ــ ليست باتصاف الماهية بالوجود بل بابداع المبدء تعالى وجوداتها ، وتأييسه أياها ــ على النحو الذى مرّ ذكره ــ فيكون الله تعالى وجود الوجودات فإذا كان الله وجود الوجودات فلا يكون للموجودات تحصّل إلا به ، ولا هويّة لها إلا بهويّته .

ثمّ ليست هويّة الباري متقوّمة بها وإلا لزم الدور وافتقار الواجب إلى الممكن ــ وكلاهما محالان ــ فيكون الموجود بالحقيقة هو الحقّ تعالى لا غير ، ويكون موجودية غيره باعتبار أخذها معه ، فيكون من قبيل الأظلال والأشباح التي يترائى فـي المرائـي الصيقلية بتبعيّة الشخص الخارجـي ، فـالماهيات كلّها بمنزلة المَرائي، التي يترائى فيها صورةُ الوجود الحقيقي ــ لعدميتها كعدمية لون المرآة ــ .

ولهذا المعنى قال الحلاج : «اللهُ مصدر الموجودات» وقال بعضهم : «اللهُ وجود السموات والأرض» وإليه يرجع قول الشبلي : «مافي الجبّة أحدٌ سوى الله تعالى» وكأنه أراد بالجبّة هيهنا الوجود المتأصّل الحقيقي، لأنّه الخير المحض يؤثر عند الكل ، وإليه يشير قول أبي العباس : «ليس في الدارين إلا ربّي ، وأن الموجودات كلها معدومة إلا وجوده تعالى» .

ويؤيد ذلك قولُ أمير المؤمنين وإمام الموحّدين عليه السلام : [1] « لا أعبدُ ربّاً

---

١) في الكافي : باب جوامع التوحيد ١ / ١٣٨ «ما كنت أعبد رباً لم أره» .

لم أره » ويقوى ذلك قـول خـاتَم الأنبياء ﷺ : « لا راحة للمؤمن من دون لقاءِ الله » .

حكمة عرشية

كما أن الموجـود ـ حسبما قـرع سمعُك فـي الحكمة المشهورة ـ إما جوهرٌ وإما عرَض، و همـا الجوهر و العرض المشهوران ؛ فـاعلم أن في الوجود جوهراً وعرضاً حقيقيين غير ذينك المشهورين، فإن ذينك المفهومين من أقسام الماهيات والأعيان الثابتة التي ماشمّت رائحة الوجود ، وهذان من أقسام الوجود .

فـ«الجوهر» بحسب المشهور ماهية غير الوجود، حقّها في أن يكون موجودة ـ أي : متحدة مع مفهوم الوجود العقلي الذي من المفهومات العامة الشاملة ـ أن لا يكون في موضوع . أي معناه ليس نعتاً لمعنى آخر، و«العرَض» هو الماهية التي تكون بحسب وجودها العيني وعند موجوديتها العينية نعتاً لشيء آخر ، فهما مفهومان عامّان وموضوعاهما ماهيتان عقليتان .

وأما الجوهر والعرَض الحقيقيتان: فـ«الجوهر الحقيقي» هو الموجود المستقلّ الذي هو بذاته وهويّته موجود وواجب لذاته من غير علاقة على شيء آخر في كونه هو هو ـ وهو الله تعالى ـ و« العرَض الحقيقي » هو الذي يكون بحسب ذاته وهويّته متعلقاً بغيره ومفتقراً في تجوهره إلى غيره، ويكون تجوهره وتذوته بغيره ، فلا يكون في نفسه مع قطع النظر عن مايقوم به متصوراً ـ فضلا عن أن يكون موجوداً ـ فذاته عبارة عن «المتقوّم بالغير» لا أن لـه معنى يكون ذلك المعنى ممـا يوصف بالافتقار إلى الغير مطلقاً موضوعاً ـ كما كان في العرَض بالمعنى المشهور ـ أو مادة ـ كما في الصورة الجوهريـة بالمعنى الأول ـ أو

صورة ـ كما في المادة ـ أوهما جميعاً ـ كما في المركّب منهما ـ أوفاعلا أو غاية ـ كما في سائر الأقسام ـ .

فالواجب جلّ ذكره جوهر بهذا المعنى حقيقة، وإن لم يطلق عليه اسمه تسمية (لتسميته ـ ن) بحسب التوقيف، حيث لم يرد إطلاق هذا اللفظ عليه تعالى في الشرع الأنور، وهو مفاد ماذكرناه من المعنى وإن كان بعبارة أُخرى .

والعرَض ـ بالمعنى الحقيقي الذي ذكرناه ـ هو وجودات الممكنات كلها سواء كان الممكن بحسب الماهية جوهراً بالمعنى المشهور أوعرَضاً ، فإن تلك الوجودات كلها أعراضٌ قائمة بوجود الحق، لا بمعنى قيام معنى العرَض بالجوهر ـ حسبما هو المتعارف المشهور بين الجمهور ـ ليلزم كونه تعالى محل الحوادث ـ كما ذهب إليه بعض المتكلمين ـ أو محل الصوَر العلمية ـ كما ذهب إليه جمهور المشّائين من الحكماء ـ بل هذا معنى آخر من القيام غير ماقيل أو يقال والعبارة قاصرة عن بيانه ، والأمثلة الدائرة في لسان العرفاء غير واردة على مضربها في شأنه . وجملة القول فيه أن معنى «قيام الأشياء به تعالى» عبارة عن قيّوميته لها ، فافهم وتثبّت وتفطّن بمفاد ماروي عن كعب الأحبار في تفسير لفظة «الله» حيث قال «إنه عبارة عن وجوده ولوازمه» ولوازمه أسمائه الحسنى ومظاهرها ، أعني الماهيات وأعيان الممكنات التي وقعت على هيا كلها رشحات وجود الحق ولمعات نوره وظِلاله ، المعبرّ عنهما بالسموات و الأرض .

وقريب من هذا المعنى مارأيتُ في مرموزات أهل الله أن أصل السماء و الأرض وحقيقتهما عبارة عن نور محمد ﷺ ونار إبليس لعنه الله ـ وسيجيء شرح هذا المعنى إنشاءالله .

لمعة إشراقية

قددريت أن النور حقيقة بسيطة معناها بحسب شرح الاسم : «الظاهر بذاته

المظهر لغيره» ودريت مما ذكرناه أن حقيقة النور مما لا يظهر لأحد إلا بالمشاهدة الحضورية، دون حصول صورة منها في الذهن، لأن كل صورة ذهنيّة فهي تكون كلية أبداً ـ ولو تخصصّتْ بألف مخصِّص ـ فيكون مبهَماً، والمبهَم لا يكون متعيّناً ظاهراً في نفسه، وعلى فرض تخصّصه يحتاج في ظهوره وتعيّنه إلى ذلك المخصّص، فلا يكون ظهوره عين ذاته، فلا يكون ظاهراً بذاته مُظهراً لغيره ـ هذا خلف.

وأيضاً كل ما هو غير النور فهو خفيٌّ في ذاته، مُظلَم في جوهره، ظاهر بالنور مستضيء به، فكيف يكون هو مظهِراً للنور ومعرِّفاً كاشفاً له؟

فتيقّن أن الله تعالى هو ظاهر بذاته إذ ذاته عين ظهور ذاته لذاته، وعين ظهور جميع الأشياء له، كما أنه مُظهِرها من مَكمن الخفاء ومُوجدها من كتْم العدم إلى عالم الوجود، فبذاته النيّرة يتنور غسَق الماهيات المظلَمة الذوات وينتشر به النور في أهوية الهويات، وتطلع شمس عظمته على آفاق حقائق الممكنات ويطرد العدم والظُلمة عن إقليم المعاني والمعقولات، فلو لم يكن طلوع ذاته النيّرة في آفاق هويّات الممكنات، وإشراق نـوره على السموات والأرض ومافيهما لم يكن لذرّة من الذرات وجود، ولا لأحد من الموجودات حصولٌ ـ لا في العقل ولا في العين ـ.

وفي الحديث النبوي[1] المصطفوي ـ على قائله وآله أكرم كرائم تسليمات اللهـ : «إن الله تعالى خلَق الخلْقَ في ظُلمة ثم رشّ عليهم من نوره» وبهذا في الحقيقة ينكشف معنى قوله سبحانه: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [٥/٣٢] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [٧٨/٩] فإن التدبير من الله عين إشراق

---

١) في الجامع الصغير (١/ ٧٠): «ان الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من نوره..»

نور الوجود منه في إبداعه للأشياء على وجه الحكمة والمصلحة، وكذا عالِميته بالغيوب عين ايجاده للأشياء المستورة في ذاتها المعقولة له، بنفس الايجاد الذي هو ضرب من التعقّل في حقه ـ كما رآه الإشراقيون ـ إذ ليس وجودات الأشياء عنه متراخية عن إرادته لها ومشيّته ولا إرادته للأشياء التي هي عين علمه التفصيلي لوجودها متأخّرة عن وجودها، بل أوجد الموجودات معقولة إيّاه، وعقل المعقولات موجودة له تعالى، وهذا معنى كون «علمه فعلياً» عندهم.

فالحاصل أن علمه الذي هو عين ذاته سبب لوجودات الأشياء التي هي عبارة عن معلوميتها له وإشراق نوره عليها، فهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه، فمِن هذا أيضاً انكشف معنى قوله تعالى: ﴿اللهُ نورٌ﴾.

تأييد استكشافي

قال مشايخ هذا الطريق: «النور» هو الذي نوّر قلوب العارفين بتوحيده، وأنار أسرارَ المحبّين بتأييده.

وقيل: هو الذي كوّن الأشياء بالتصوير والأسرار بالتنوير.

وقيل: هو الذي يهدى القلوب إلى ايثار الحق واصطفائه، ويهدى الأسرار إلى مناجاته واجتبائه.

وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿اللهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٢/٢٥٧] أي: من الباطل إلى الحق، ومن العبد إلى الرب، و من البُعد إلى القُرب، ومن الأسفل إلى الأعلى، ومن الهاوية إلى الجنان.

كشف استناري

اعلم أن للحق تعالى أسماء متقابلة لازمة لذاته كالأول والآخر، والظاهر

والباطن ، والهادي والمضلّ ، والمعزّ والمذلّ ، فلـه بحسب أحديّة وجوده الواجبي من كل صفتين متقابلتين أشرفهما بحسب جمال ذاته وزينة وجهه ، وإنما يصدق الطرف المقابل عليه بحسب مقايسة عظمة ذاته وجلاله إلى مَن دونه وقهره على من سواه ، فالأسماء والصفات الجمالية إنما تثبت لـه أولا وبالذات ، والأسماء والصفات الجلالية تصدق عليه ثانياً وبالعرض من باب الضروري الذي يذكر في بحث العلل الغائية التي هى الفاعل لفاعلية الفاعل .

وبذلك الأصل ينحفظ قاعدةاستحالةكون الخير الحقيقيمبدأ للشرور ، وبه أزاح اُستاد الحكماء ومقدّم المشّائين أرسطاطاليس شبهةَ الثنوية القائلة بتعدد الفاعل الأول للكل ، فكل ممكن مزدوَج الحقيقة من جهة كمالية نورية ناشية من الصفات الجمالية النورية ، ومن جهة نقصانية عدمية ظلمانية ناشية من الصفاتالقهرية الجلالية النارية ،فمن هذين الأصلين نشاء النورُ المحمدي والنارالإبليسي، الساريتين فيسموات الأرواح والروحانيات، وأرض الأجسام والجسمانيات .

والله تعالى منوّر الكل بنور وجوده وجماله ، وبنار هيبته وجلاله ، كما أشار إليه بقوله : ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [٢/٢٥٧] فالله نورالسموات والأرض بأنوار كواكب أسمائه النورية الجمالية المشرقة في سماء حقيقة ذاته ، وأشعّة نيران الجواهر النيّرة في آفاق ملكوته وجبروته ، فالموجودات كلها مسخّرة لهاتين الصفتين ، متقلّبة بين الإصبعين ، فالعرش وماحواه بين صفتين من صفات السُبحان،والقلبُ ومايهواه بين إصبعين من أصابعي الرحمان،اللتين كانتا في مرتبتي صفتي لطف وقهر، وفي مقام آخر جوهري عقل ونفس ، وفي درجة اُخرى حالتيبسط وقبض .

وظلّاهما في العالَم : سماءٌ وأرضٌ ، وفي الكواكب : سعودٌ ونُحوسٌ ،

وفي الآفـاق شرقٌ وغربٌ ، وفي الحيوان ذكَر وأنثى ، وفي الطعوم حلاوةٌ و مرارة ، وفي اللون سوادٌ وبياضٌ ، وفي الكمّ متّصلٌ ومنفصلٌ ، وفي المقدار قارّ وغير قارّ ، وفي الخطّ مستقيمٌ ومعوّج ، وفي السطح مستوٍ ومنحَنٍ ، وفي العدد منطق وأصمّ ، وفي المذهب هدايةٌ وضلالٌ ، وفي الاعتقاد حقٌّ وباطلٌ وفي النفس إقبـالٌ وإدبـارٌ ، وفي القلب بصيرةٌ وعمى ، وفي الآخرة نعيمٌ و جحيم ، وفي الدنيا دولةٌ ونكبةٌ ، وفي الباطن إلهامٌ ووسوسةٌ ، إلى غيرذلك من المتزاوجات السارية في جميع الذراري ، النازلة من سماء عالَم الوحدة إلى أرض عالَم الكثرة والهيـولى ، لقولـه تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوجَيْنِ﴾ [٥١/٤٩] .

وقلّ من العلماء من لم يزلّ قدمُه في شرح تفاصيل هذه المراتب المزدوجة المتنزّلة من شرَف سماء العظمـة والكبرياء إلى المهبـط الأدنى و حضيض الأرض السفلى ، ثمّ المرتقيـة إلى عالَم الأسماء والقيامة العظمى التي يحشر فيها الأشياء إلى الربّ الأعلى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾[١٩/٩٥] .

فصل

في قوله جل اسمه :

مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوكَبٌ دُرِّيٌّ

حبّذا عبد بلـغ في عبوديّته و سلوكه طريق الإنابـة إلى مقام شاهد بالمشاهـدة القلبيّة نور وجـه الله ، ورآه كما رأى بالمشاهدة البصريّة نور المصباح من وراء زجاجة واقعة في مشكوة، فماهو بمنزلة زجاجة هذا النور

هو محمد رسول‌الله ﷺ إذ لايمكن مشاهدة النور الأحدى لغاية شدّته وقوّته التي يقهر البصائر و يبهر الألباب ، إلا خلف حجاب الزجاج المحمدي ، إذ به يعرف مصباح نوره سبحانه قبل صباح ظهوره .

وإن أردت بيان نسبة المصباح إلى النور، والصباح إلى الظهور ، فقل : «هو الله أحد» فقولـك «هو الله» لفظان: موضوع ومحمول ، والحمل نحو من الاتحادفي الذات والوجود ، لكن لونظرتَ نظراًعقلياًفي مصداق هذا الحمل، وجدت «هو الله» شيئاً واحداً وذاتاً واحدة، يعبّر عنهما تارة بالوجود الواجبي والذات الأحديّة ، و تـارة بالمستجمع بجميع الصفات الكماليّة والأسماء الحسنى .

ومصداق الحيثيّتان المذكورتـان حقيقـة بسيطة واحدة تكون بإحدى الحيثيتين هويّة، وبالأخرى إلهيـة، كما أنه بأحد الاعتبارين وجودٌ،وبالاعتبار الآخر اسم وصفـة ، وكما أن « المصباح » في عالَم المشاهدة البصريّة شيء واحد ومحسوس واحد لكنّه عند التميّز ينحل إلى أمرين، منه نور هوبمنزلة الوجود المطلق ، و حامل صنـوبريّ هو بمنزلة معنى اسم الله في الواجب تعالى .

هذا إذا كان الممثّل له في « المصباح » هو «الله تعالى» وأما إذا كان ذاتاً إمكانيـّة ـ كذات‌الرسول ﷺ ـفأحد الأمرين فيه بمنزلة الوجود والثاني بمنزلة الماهية في الممكن .

والفرق بين المواضع الثلاثة أن الصفة والموصوف في المصباح ـ أي النور والصنوبرة ـ متحدان حسّاً ووضعاً، متغائران وجوداًوعقلا، ومابإزائهما في الممكن ـ أي الماهية والوجود ـ متحدان وجوداً وعيناً متغائران عقلا و تسميـة ، وفي الواجب تعالى ماهو بمنزلة الوجود في الممكن والنورية في

المصباح ـ وهو المسمّى بالهوية ـ عين ماهو بمنزلة الماهية والحامل وهو المسمّى باسم «الله» لا فرق إلا في العبارة ، فالمصباح مثالٌ لله ، ونوره مثال للهوية الأحدية .

فلو لم يكن للنور المصباحي حامل ذو تعيّن وضعي ، لما تشخّص منه جهة قُرب وبُعد في الهواء الذي يستنير منه شدّة وضعفاً، فلم يقع منه نورٌ على شيء من هواء البيت وجُدرانه وسقفه ، لعدم النسبة بالرجحان وعدمه، والأوليّة و عدمها، ولاستحالة الترجيح من غير مرجّح .

فكذلك لو لم يكن للحق أسماء يقع منها آثار مخصوصة على المظاهر والمجالي ـ بحسب مايقتضيه تعيّن كل اسم عن اسم آخر ـ لم يصدر عنه في عالَم الايجاد شيء من الممكنات ، إذ لا أولوية لممكن مّا، ولا رجحان له على ممكن آخر بحسب الجهة الإمكانية، فإن الماهيّات الإمكانيّة والمعاني الكلية التي هي غير الوجود في درجة واحدة بحسب الذات في قبول نور الوجود وعدم قبوله، بل المعيّن لكل منها في مقام خاصّ ودرجة معينة إنّما هو ذات الواجب بمايلزمها من الأسماء والصفات المنبعثة عن حاقّ هويّته الإلهيّة وشمس حقيقة الواجبيّة،النافذ نورُها في جميع هياكل الممكنات ، الباسط فيضها على بساط جميع الماهيات .

ثمّ لما كان أول من قرَعَ بابَ الاستنارة بنور الله وأول من نطق بـ«لا إله إلا الله» هو العبد الأعلى، والعقل الأوّل والممكن الأشرف والحقيقة المحمدية فهو مصباح نور الله ، وبتوسطه يقبل الاستضائة والاستنارة جميع الماهيّات الواقعة في فضاء قابليّة الوجود والهويّات ، الساكنة في هواء بيوت أهل المحبة والعبوديّة لمُبدع الوجود،الفائض لنور الخير والجود ، فذات النبي صلى الله عليه وآله كالمرآة المصقولة ، التي يحاذى بها وجه النيّر الأعظم، وتوازي شطر الحق، فتجلّى لها وجه ربّك ذو الجلال والإكرام .

تفريع

فكل من صحّت نسبته إليه من فقراء أمّته سابقاً ولاحقاً انعكس نورُ الحق منه ﷺ إليه، وهذا معنى «الشفاعة» التي يكون جميع الناس محتاجين إليها يوم القيامة حتى الأنبياء والأولياء سلفاً وخلفاً ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [٧٥/٢٢ – ٢٣].

واعلم أن الغرض الأصلي من العبادات والرياضات هو تصفية وجه الذات والمحاذات بالقلوب الصافية شطر نور الحق الأحد خلف زجاجة محمد ﷺ يشاهد نور الله، ويقع عليه ضوء معرفة الله، وهذا معنى ماقال أُويس القرني رضي الله عنه: «للعبد أن يكون عيشه كعيش الرب» وإلى ماذكرنا يرجع حاصل معنى العبودية التامة.

وقد سئل عن بعض أصحاب القلوب: «ما العبودية التامة؟» فقال: «إذا صرت حرّاً فأنت عبدٌ» معناه إنك إذا تجرّدت وخلصت عن التعلّقات وتصفّى قلبُك عن الكدورات، فصرتَ عبداً لله، ملَكاً مقرباً وملكاً ومالكاً لجميع الأشياء، بعزّة الله وقدرته وملكه ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [٣/١٦٤].

ومما ورد في هذا المعنى عن رسول الله ﷺ في خبر أهل الجنة: إنّه يأتي إليهم الملك بعد أن يستأذن منهم للدخول عليهم، فإذا دخل ناولهم كتاباً من عند الله، فإذاً في الكتاب لكل إنسان يخاطبه بـه: «من الحيّ القيّوم إلى الحيّ القيّوم، أما بعد فإنّي أقول للشيء «كُنْ» فيكون، وقد جعلتك اليومَ تقول للشيء «كُنْ» فيكون فقال ﷺ: فلا يقول أحد من أهل الجنّة لشيء: «كُنْ» إلا ويكون.

تنبيـه

ولكنك يامسكين يجب أن تعلم التمييز بين المرآة والشخص، وتفرّق الظلّ من الأصل، وقد نبّهناك عليه قبل ذلك لئلا تقع فيماوقع فيه كثيرٌ من أهل الضلال والنكال، وأصحاب الحلول والاتّحاد، فما للتراب وربّ الأرباب ﴿وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ ٱللهَ رَمَىٰ﴾ [١٧/٨] فإذا خوطب سيّد الأبرار و قائد الأخيار ﷺ بقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَاتَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [٥٦/٢٨] فما يكون لأمثالك ونُظرائك.

ثمّ في التعبير عن تلك المرتبة بالأمانة في قوله عزجلاله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَىٰ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا ٱلْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[٧٢/٣٣] إشعار لطيف بماذكر، فإنّ الأمانة مردودة إلى صاحبها، بل كل صفة وجوديّة وكمال نوري أفاضه اللهُ على ممكن من الممكنات وماهيّة من الماهيات فهوأمانة من الله عنده، وليس له إلا الانصباغ بنوره والمجاورة معه والاحتفاف بـه، لا الاتصاف بالحقيقة، ولهذا ينخلع عنه عند أداء الأمانـات ورجوع الكلّ إليه ﴿ أَلَا إِلَىٰ ٱللهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [٥٣/٤٢].

وإلى هذا المعنى أشار أبـوسعيد الخرّاز حيث قال : «علامةُ المريد في الفناء ذهاب حظّه عن الدنيا والآخرة إلا من الله سبحانه، ثم يبدو بادٍ أيضاً، فيُريه ذهابَ وجودِ نفسه وحظّ رؤيته من الله، ويبقى من رؤيته ما كان لله من الله فينفرد العبد من فرديّته، فإذا كان كذلـك فلايكون مع الله غير الله، فبقى الله الواحد الصمد في الأبديّة» كما كان في الازليـة هذا كلامه ـ وهو تمام في فحواه لمَن كان لـه سمعٌ يسمع آياتـه، وعقل يفهم توحيده، وبصر يرى

قدرته ونفوذ أمره في عالم الملك والملكوت والغيب والشهادة .

طريق آخر

روى عن بعض السالفين من المفسّرين : «إن المشكوة هو الصدر و الزجاجة هو القلب، والمصباح هو الروح» وهذا إدراكه جليٌّ واضح، لكن ينبغي أن يعلم ، أن لكل من هذه الثلاثة ـ أي : الصدر والقلب والروح ـ مراتب ثلاثة :

أولها ظاهرة مكشوفة لكل أحد، لكونها من عالم الحسّ الظاهري وثانيها مستورة عن الحسّ الظاهر ، مكشوفة للحسّ الباطن، وثالثها مستورة عنهما جميعاً ، مكشوفة للعقل النظري ، ولها مراتب أخرى ليس هيهنا موضع بيانها .

فالمرتبة الأولى: أمامن الصدر، فهي هذا المركّب من العظام والأغشية والرباطات المحيطة بجرم الكبد، و كأن المراد به هو الكبد ، لكونه محل الروح الطبيعي، وأما من القلب فهو اللحم الصنوبري، وأما من الروح ، فهو جسم لطيف حارّ ، هو مركَب النفس الحيوانيّة المدركِة للجزئيّات لأجل الحركات الشهوية و الغضبية .

وأما المرتبة الثانية: من كل منها : فمن الصدر الروح الطبيعي ، ومن القلب الروح الحيواني المذكور، ومن الروح الروح النفساني البشري الذي يتعلق به ويستعمله النفس الإنسانية المتفكّرة في المقاصد الحيوانيّة والرويّة في التدابير البشريّة، بحسب المعاش والمعاد والدنيا والآخرة، على مايقتضيه العقل العملي، المشترك فيه بين الناس، المتفق عليه العام والخاص عند تخليته عن العوائق والوساوس وسلامته عن القواطع والنوازع .

فهذه الأرواح الثلاثة ـ أي الطبيعي والحيـواني والنفساني ـ هي التي يبحث عنها الأطباء، ويسمّى عندهم بالأرواح ويتميّز عندهم بالقيود الثلاثة ويتفاوت جسميّتها في اللطافة شدّةً وضعفاً، وفي كمال الاعتدال ونقصه .

ولكل منها مولد ومنشأ خاصّ : فمنبَع الروح النفساني الدِماغ ـ وهو أعدل الأرواح ـ ومنشأ الروح الحيواني القلب الصنّوبري ـ وهو متوسّط في كمال الاعتدال ـ ومولد الروح الطبيعي الكبد ـ وهو أخرجُها عن الاعتدال ـ .

وهذه الأرواح الثلاثة أشرف الأجسام العنصريّة حتى كادت أن يشبه الأفلاك ، وأما عند العرفاء فأساميها ماذكرنا ـ من الصدْر والقلْب والروح ـ بحسب هذا الاستعمال في المرتبة المتوسطة .

وأما المرتبة الثالثة: فالصدر بحسب هذه المرتبة هي النفس الحيوانية التي يستعملها القلب الإنساني ، وهو في هذا المقام عبارة عن النفس الناطقة المذكورة والعقـل العمليّ المذكور ، والروح عبـارة عن العقل المستفاد المشاهِد للمعقولات عند اتصالها بالعقل الفعّال ، وهو الملك المقدّس ، وهو قلم الحق ، كتب في ألواح قلوبنا حقائق الايمان لقوله تعالى : ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ [٩٦/٣ ـ ٥] .

فهذه الثلاثة في هذه المرتبة تكون من عالم الآخرة وعالَم الغيب وعالم الملكوت ، وفي المرتبة الأولى كانت عن عالَم الدنيا وعالَم الشهادة وعالَم الملك، وفي المرتبة المتوسطة يقع متوسّطاً بين العالمين، برزخاً بين النشأتين بمنزلة عالَم الأفلاك الذي قيل: «إنه الأعراف» .

والقلب بهذا المعنى الأخير هو الذي يقال: «إنه عرش الله» و«مستوى اسم الرحمن» لكونه محل معرفة الله وملكوته على سبيل الاستقامة ، من غير اعوجاج

ولا الحاد في عظمة ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وكُتبه ورُسله واليوم الآخر الذي هو يوم مراجعة الخلائق إليه، وإعادة الأرواح ومُثولها بين يديه.

والصدر هو الكرسي، ونسبة العرش إلى الكرسي كنسبة العقل إلى النفس والقضاء إلى القدر، إذ المعقولات كلّها مجملة في القضاء، مفصّلة في القدَر، وكذا الأنوار الكوكبيّة، متّصلة واحدة في العرش ـ لغاية صفائه ولطافته وكونه مصاقباً لأفق عالَم المعنى والملكوت وهي منفصلة متجزّية في الكرسي ـ لكون الكواكب في اللطافة دون فلك العرش ـ.

فصل

في قوله عز اسمه

يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ

اعلم أن هذه الشجرة ليست من أشجار الدنيا وعالَم الحسّ ـ كما ظنّه المحجوبون ـ وإلا لكانت في جانب من جوانب الدنيا قابلة للإشارة الحسّية وأنها ليست كذلك، فليست في الدنيا، ولا في الآخرة أيضاً ـ كما ذهب إليه قوم آخر ـ.

قال الحسن البصري: «لو كانت هذه الشجرة في الدنيا لكانت إمّا شرقية وإما غربية: ولكن والله ما في الدنيا ولا في الجنة، إنما مَثَل ضرب الله لنوره».

وكثيراً ما يكون لشيء واحد أسامي كثيرة باعتبارات متعددة يكون المقصود من الكل معنى واحد وإن تعدّدت الألفاظ وتكثّرت الحيثيّات، وربما يكون لحقيقة واحدة درجات متفاوتة في العوالم المتطابقة المتحاذية بعضها فوق بعض، كالقلب الذي ظاهره جسم مركّب من العناصر الأربعة، ثمّ من الأخلاط

الأربعة ، ثمّ من الأمشاج مثل الشحْم واللحْم والعصب والعروق وماشا كلها .

وظاهر ظاهره شكل صنوبري أحمـر محسوس ، وباطن ظاهره تجويف ظلماني أسود ، وباطنه روح بخاري حاصل من لطافة الأخلاط وبخاريّتها، كما أن هذا الظاهر حاصل من كثافة الأخلاط وأرضيّتها ، ونسبة هذا إلى ذلك كنسبة الأرض إلى السماء .

ولباطنه باطن ــ هو النفْس الحيوانية ــ وهو قشر ظاهر للنّـفْس الإنسانية الناطقة ، ونسبته إلى هذه النفس كنسبة البدن إليه ، ثمّ لباطن باطنه باطن آخر، يكون جميع ماسبق ذكرُها قشوراً بالقياس إليه ، وهو محيط بها، إحاطة العرش بما فيه من السماء والفرش ، وهو الجوهر العقلي الذي كان مفاضاً على النفس من المبدء الفعال : ،وهو في أول تكوّنه كان بمنزلة المعاني الذهنيّة ، والمفهومات الكلـّية الهيولانية ، ونسبته إلى العقل بالفعل (الفعال ــ ن) نسبة المني ّ إلــى الرجال .

ثم يتدرّج في قوة الوجود العقلي إلى درجة العقل بالملكة ، التي يدرك بها المقدمات الأوليات ، ويتفطّن للمشاركات والمباثنات ، ويتنبّه للتصورات و التصديقات المأخوذة من الحسيات ،ثمّ إلى درجة العقل بالفعل ، الذي يدرَك به النظريات وحدود الماهيات وبراهين الموجودات ، ثمّ إلى درجـة العقل المستفاد المشاهد لصور المعقولات في القلم الأعلى واللوح المحفوظ ، ثـمّ ينخرط في سلك الملائكة المقرّبين والاتحاد معهم اتحاداً نورياًمقدساً من شوائب القصور والنقص ــ فهذه كلّها من جملة مراتب القلب الإنساني في الصعود من أرض الجسميّةإلى السماء اللاهوتية.

فعلى هذا قياس غيره من الحقائق المستعملة ألفاظها عند أهــل الشريعةو الحقيقة مطلقاً وفي هذه الآية خاصة ، فالشجرة الـزيتونة عند المحجوبين ــ

المقتصرين على أول الدرجات للحقائق وأدنى العوالم للمعاني ــ هي شجرة منبتها الشام وغيرها ــ وأجود الزيتون زيتون الشام.وهــي مباركة لأنها كثيرة المنافع ، أو لانها تنبت في الأرض التي بــوركت للعالمين ،أو بوركت فيها حيث دفن فيها أجساد سبعين نبياً منهم إبراهيم عليه السلام .

وعن النبي صلى الله عليه وآله :«عليكم بهذه الشجرة ، زيت الزيتونة فتداووا به ، فإنه مصحة من الباسور».

ومَنبتها لاشرقية ولاغربية ، لأن الشام متوسط بين شرق العالَم وغربه،أي الرُبع المعمور للأرض،المكشوف من البحر،الذي أحد جانبيه في الطول ــ وهو نصف دائرة عظيمة في الأرض ــ الجزائر الخالدات ، الــواقعة في جانب الغرْب ، وكانت مكشوفة في قديم الزمان من البحر والآن مغمورةٌ فيه،والجانب الآخر منتهى العمارة عند ساحل البحر في جانب الشرق .

وقيل : لافي مضحى ولافي مقنأة [1] ، ولكن الشمس والظل يتعاقبان عليها و ذلك أجود لحملها وأصفى لدُهنها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «لاخير في شجرة في مقنأة ، ولانبات في مقنأة ، ولاخير فيهما في مضحى» .

ويستفاد من هذين القولين أنها شجرة واقعة في اُفق قبّة الأرض ، وهو في اصطلاح أهل الهيئة والنجوم موضع من الأرض طولُه تسعون درجة،وعرضه عرض وسط الأقاليم ،أو منتصف الــرُبع للدور ــ أعنى خمسة و أربعين ــ إذ القول الأول مُشعر بتوسط موضعها في الطول بين مطلع الشمس ومغيبها فــي الأرض المعمورة ، والقول الثاني مشعر بكونه متوسطاً في العرض واقعاً بين ارتفاع الشمس في نصف النهار الأطول ، وغاية انحطاطها فيه فــي المواضع المعمورة ، أو يكون النهار فيه متوسطاً بين غاية الطول وغاية القصر في جميع

---

(١) المقنأة الموضع الذى لاتطلع عليه الشمس .

السَنة ، كمواضع خط الاستواء و مايليه .

فهذابيان معنى «الشجرةالزيتونة»حسبما وصل إليه أفهام الجمهوربحسب ظهورها في مظاهر هذا العالَم،ووجودها في مهوى كدورة الأجرام ومعدن الظلام ، وأما تحقيقها بحسب نشأة اُخرى غيرهذه النشأة ، فوقع إليه إشارات قرآنيّة ورموز نبويّة متفاوتة حسب مقامات العارفين ودرجات المتذكرين ؛ فتارة يُعبرعنها بـ«شجرة طوبى» وتارة بـ «سدرة المنتهى عندها جنة المأوى» وتارة بمقام« أبيت عند ربي يطعمني و يسقيني »[1] وتارة بـ « شجرة موسى» ﴿شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾[٢٣/٢٠] وهو دهن المطالب العلمية البرهانية النورانية وصبغ الخطابيات والمواعظ الحسنة المقبولة للعقول المتعارفة .

تظليل فرشي فيه تنوير عرشي

قد تبين لك بما قرع سمعك أن للقوة الإنسانية التي تكوّنت أول نشأتها في القلب اللحمي الصنوبري الشكل المخروطي الوضع درجات متفاوتةفي الارتقاء إلى الكمال ولهاتطورات في الأحوال ، وإنما ينكشف ذلك بأنتعتبر أولا القلب وأحواله، وهو بالحقيقة أول عضو يتكوّن في البدن ويتحرّكوآخر عضو يفسد ويسكن ، بل هو بالحقيقةالبدن الحيواني الذي يستعمله النفس بواسطة ما ينبعث عنه من البخاراللطيف ، وباقي الأعضاء يـزاد لأجله ويولد لصيانته ، لأنها بمنزلة الغلافاتوالقشورالصائنة للبّ القلب، والآلات الخادمة له ، الحافظة إياه ، ولذلك يكون واقعاً في وسط البدن ، وهو وإن كان في الصورة محاطاً لها ، وفي الكميّة أصغرمنها إلا أنه فيالقوةوالمعنى محيط بها ،

---

(١) في الفقيه : كتاب الصوم . النوادر ١٧٢/٢ : «أظل عند ربي ... »

مستعمل إياها ، غـاية لوجودها ، وفاعل معط لقواها .

ثمّ يتولد منه بخار لطيف هو «الروح الحيواني» عند الأطباء ، ثمّ يتولد منه روح آخر بخاري ألطف منه ، وهو «الروح النفساني» ثمّ يتولد منه النفس النباتية ــ وهي قوة ومبدء للتغذية والتنمية والتوليد ــ ثـمّ النفس الحيوانية ــ وأول مراتبهـا القوة اللمسية ، كما في الدّود والحلَزونات ونظائرها من الحيوانات العديمة الرؤوس ــ ثمّ يتولد النفوس الحسّية على طبقاتها ، ثمّ النفوس الخيالية على طبقاتها ، ثمّ النفوس الوهمانية ، وكذلك ــ وهذه أقصى درجات النفس الحيوانية بما هي حيوانية ، ثمّ يتكوّن النفس الناطقة الملكية ــ و هي نور من أنوار الله المعنوية قد طلع عن اُفق عالم الآخرة ، وهي أول من قـرَع بابَ الملكوت ، فأول درجاتها العقل الهيولاني ، وهو بـذر شجرة العقل و العرفان، وحَبّة ثمرَة المعرفة والايمان ، ثمّ يتكوّن منـه العقل الاستعدادي ، ثمّ العقل بالفعل ، ثمّ المستفاد المضيء في المعاد ، ثمّ العقل الفعّال للمعقولات و الأنوار والفيّاض لوجود الحقائق والأسرار .

* * *

فإذا علمت هذا في مراتب الإنسان وسفَره وسلوكه في درجات الأبدان والنفوس والعقول إلى أن بلغ في الارتقاء إلى أقصى الغايات التي نزل منها . فاعلم هذا في مراتب ما يتغذّى به ويتقوّى منه، ويستكمل ويترقي ، فله في كل مقام أدوية و أغذية خاصّة ، وقرائـن معيّنة ، وأزواج معلومـة بعضها من باب الأجسام والجسمانيات ، وبعضها من باب الحواسّ و المحسوسات ، وبعضها من باب الأوهام والخيالات والظنون والاعتقادات ، وبعضها مـن باب العقول والمعقولات وبعضها من باب الشهود والمشاهدات .

فما دام الإنسان في عالم الدنيا والجسمية فلابدّله من غذاء يشبه المغتذي

صورة ومادة وقوة ، فيتغذى الصورة بالصورة ، والمادّة بالمادّة ، والقوّة بالقوّة والحسّ بالمحسوس ، ثمّ لكل عضو حصّة من الغذاء يشابهه ويشاكله بعد مراتب النضج والاستحالات بالقوة الغاذية التي هي في البدن بمنزلة القوة العاقلة في النفس ، فلابدّ له أيضاً في تجوهر نفسه وذاته من أغذية علميّة ومواد عقلية .

أو لاترى أن مادة الغذاء إذا وردت البدن وحضرتْ عند تصرّف الغاذية فتصرّفت فيها وأحالها الهضم بقواها المسخرّة لهذا الأمر وصيّرتها صافية عن الفضلات بصنعة طبيعية يشبه صنعة الكيمياء،فيجعلها خالصة عن شوائب الغشّ والغلّ ، ومصفاة عن القشور في مراتب أربعة للهضوم والإحالات :

إحداها في المعدة ، فيتخلّص ويتجرّد من ذنوب بعض الفضلات والغشاوات بهذا التعذيب وهذه الرياضة بحرارة جهنم المعدة ، التي قيل لها : «هل امتلأتِ فتقول : «هل من مزيد ؟» بيد زبانية القوى التي عليها تسعة عشر ، ويتوب عن خروجها قبل ذلك عن طاعة الله و بُعدها عن عالم الاعتدال والوحدة ، و انحرافها عن جادة الصراط المستقيم ، ومروقها عن شريعة الطبيعة المدبّرة للأجسام على نهج الحكمة .

ثمّ إذا فرغت هذه القوى في خدمتها التي يخصّها لهذا المسافر الغيبي في هذا المنزل ، وارتقى قليلا من هذه الهاوية المظلمة إلى طبقة أخرى فوقها ، وقع بيد قوى أُخرى من هذا الصنف فعملوا فيه ماأمروا به ، فانهضم في الكبد مرة أخرى ، وسقط منه بعض مابقي فيه من الفضول، فصارأخلاطاً أربعةخلطوا عملا صالحاً وآخر سيّئاً ، لخروجها عن تمام التعصّي عن الطاعة ، وقربها من الصلاح والعبودية لأمر الله ، المستعمل لها في عمارة بيت الله المعمور .

ثم إن أصلح هذه الرفقاء الأربعة هو الجوهر المسمى بالدّم ، فإذا وقع

في العروق وخرج منه العرق وارتاض وسلك سبيل الطاعة للنّفس . واشتغل في بيت القلب للنسك الطبيعي ، ومكَثَ قدْراً صالحاً من الزمان للعبادةالبدنية صلَح لأن يلبس كسوةَ الصورة البدنيةبيدالقـوّة المصـوّرة ، مؤدياً لشكر هذه النعمة الجسيمة فضلة من الزائد عن الحاجة بيد القوة المولّدة لتصيرمادةلبدن آخر مثله في النوع .

* * *

فإذا علمت حال استكمال البدن بما يكمله ، ويزيده في المقدار والقـوة إلى أقصى مالهمن الكمال فاعلم أن حال استكمال النفس في أغذيته النفسانية والعقلانية بهذا المنوال ، فإن النفس بقوّتها الإدراكيه أحـضرت عندها صورة محسوسة ، فـأول مـا تصرّفت فيها بقوتها المتصرفة هو أن نزَعها عـن كـدر المـادّة التـي هي كالفُضلة الأُولى للغذاء ، والهاوية لأهل العقوبة و الجـزاء ، فسمّـى هذا الفعل من النفس بـ«الإحساس» وهو تصرّف فعليّ من النفـس ، وهـو كمال انفعاليّ للحواسّ .

ثمّ وقـع منها تصرّف آخر في تلك الصورة وهو تقشيرها مـرّة أخـرى تقشيراً أتـمّ ، حتـى خلعت عنها الأغشية المـادية ، وهـذا هو « **التخييل** » و«التصوير» والصورة عند ذلك كمال للخيال وغذاء له ، ونسبتها إليه نسبـة المحسوس إلى الحسّ .

ثم فعلتْ فعلا آخر بحيث انتزعت منها المادة وعوارضها بالكلية ، إلاأنه بقي لها علاقة إلى المادّة، بحيث تضاف إلى مادة مخصوصة وهو «التوهّم».

ثـمّ إذا عملت فيـها عملا آخر ، نفضت عنهـا آثار المادة وعوارضهـا وعلائقها وشواغلها ، فصارت لبّاً خالصاً سائغاً للبيب العقل الذيهو ملك من ملائكـة الله لأنهـا تخلّصت من الذنوب والجـرائم الماديـة ، و المعاصـي

الجرمانية بالكلية ، واستغفرت وتابتْ وأنابتْ، ورجعت وآبتْ «والتائب من الذنب كمن لاذنب له» .

فانظر إلى حكمة الصانع كيف أبدعَ قوة عاقلة ، يعمل في المحسوس عملا يجعله معقولا وعاقلا .

* * *

فعلم مما ذكرنا أن لكل الأشياء سلوكاً طبيعياً خاصاً نحو الخير الأقصى والمقصد الأسنى ، فلكلّ سافل سلوك نحو العالي ولكل عالٍ رحمة وعناية بالسافل تشبّهاً بالمبدء الأولى في إفاضة الخيرات كلّها ، وعلم أن الغذاء ـ مثلا كالمغتذي يتطوّر بالأطوار ، ويتسمّى في كل طور وعالَم باسم خاصّ يناسبه .

فأدون المنازل وأدناها عنصر ، ثمّ بعد الاستحالات جسم مركّب جمادي كالحنطة والخُبز والزيت ، ثمّ بعد مراتب التصرفات دمٌ وخَلط صالح ، ثمّ لحمٌ وغضروف وعصَب ، ثمّ بخار لطيف حارّ ، ثمّ صورة حاسّة ومحسوسة ، ثمّ صورة خيالية ، ثمّ صورة وهمية أوعقلية ـ وهلمّ إلى درجة مشاهدة الأنوار الإلهية ، ومعاينة الصفات اللاهوتية والأسماء الربّانية .

فيكون لها في كل مرتبة من المراتب الخَلْقية والأمريّة ، وبحسب كل كَسوة وخلقة من الأكسية والخلع النورانية والظلمانية اسم خاصّ .

فضَرب اللهُ مثَلا للذين آمَنوا منكَ و درجاتك في العرفان والارتقاء إليه ـ إلى ان يصير نوراً على نور ـ بشجرة الزيت ، وارتقائها إلى غاية الكمال وسلوكها إلى سبيل الاهتداء بعالَم النور المحسوس ووصولها إليه حتّى تصير نوراً على نور .

فالشجرة الزيتونة بمنزلة نبات يثمر غذاء وطعاماً لطيفاً للإنسان الكامل

الـذي هو أشرف خلق الله وعبده الذاهب إلى ربه ـ كالخليل عليه السلام حيـث قال : ﴿ انّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [٩٩/٣٧] وكموسى عليه السلام حيـث قال: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ [١٠/٢٠] وكنبيّنا صلى الله عليه وآله حيث قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ ٱلَّـذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ﴾[١/١٧] «والزيتونة»بمنزلة الأطعمـة والأغذية التي يتناوله الإنسان ويُدخلها في جوفه .

«والمشكوة» بمنزلة البدن الإنساني لكونها مُظلمة في ذاتها ، قابلة للنور لاعلى التساوي لاختلاف السطوح والثقب فيها ـ وهكذا حكم الجسَد الإنساني في قبوله لأنوار الحسّ والحركة لاعلى التساوي .

«والزجاجة» القلب باعتبار تجويفه الذي يكون مكاناً للروح الحيواني الذي بمثابة دهن الـزّيت .

«والمصباح» هو الروح النفساني المنور بنور النفس الإنسانية .

وتلـك الروح لغاية قُربها من عالم الغيب والملكوت يكاد زيتها يضـيء ولـولم تمسسه نار من الخارج ، لأن العلل الذاتيه ليست أُموراً خارجة عـن ذوات المعلولات ، فالقابل لنور النّفس وإن كان مفتقراً في الاستنارة بها إلى العقل الفعّال ، لكنّه غير مفتقر إلى سبب خارج عن ذاته ، فكأنه مكتفٍ بذاته عن السبب .

وأما وصف «الزجاجة» بأنها «كوكب درّي» فذلك لكون القلب في الحقيقة هو تجويفه الذي يمتلئ بنور الروح الحيواني ويتنوّر به .

وأما كونه « متوقّداً من شجرة مباركة » فلكون مادة روحه من الأشجار و النباتات الغذائـية الكثيرة البركات لحصول الأرواح ونفوسها وعقولها مـنها ومن موادّها بعد استحالات وحركات كثيرة ، كما أن الزيت انما هو يحصل من شجرة الزيتونة بعد تعصيرات شديدة .

وأما وصف الشجرة بأنها «لاشرقيّة ولاغربيّة» فإن ألطف الأغذية وأعدل الأمزجة إنما يتكوّن في البلاد والبقاع التي كانت في أوساط الرُبع المكشوف من الأرض كمامرّ.

فصل تقديسي

هذا تأويل الآية في العالَم الإنساني البدني ـ وهوعالَم صغير جسماني ـ ولها تأويلان آخران أحدهما في عالَم الآفاق، والثاني في عالَم الأنفس:

أما الأول: فالمشكوة عالَم الأجسام، والزجاجة: العرش، والمصباح: الروح الأعظم، والشجرة: هي الهيولي الكلية التي مادة حقائق الأجسام وصوَرها المختلفة التي هي بمنزلة الأغصان والأوراق، وهي في نفسه أمرملكوتي عقلي إلا أنها أخسّ الجواهر الملكوتية وأدناها، وهي نهاية عالَم الأرواح وبداية عالَم الأجسام، فيكون غيرمنسوبة إلى شرق عالم العقول والأرواح، ولا إلى غرب عالم الأجسام والأشباح.

يكاد زيتها ـ وهوعالم الأرواح النفسانية ـ يضيء بأنوار العقول الفعّالة ولو لم تمسسه نارنور القدرة الأزلية، وذلك لقرب طبيعتها من الوجود، نورٌ على نور، فالأول نورالرحمة الإلهية، والمعرفة الربانية، والثاني نور الروح الأعظم والعقل الفعّال، إذالأول نور العقل الفعّال، والثاني نور النفس الكلية التي هي نور العرش، وهو مستوى نور الرحمة الرحمانية العقلية التي هي كصورة الرحمن، فيكون نورأعلى نور، كقوله تعالى: ﴿الرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [٢٠/٥] وفي قوله تعالى: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى أن فيض نور الرحمانية ينقسم على كل من يريد الله ايجاده من العرش إلى الثرى.

فصل

وأما التأويل الآخر فهو الذي أفـاده الشيخ أبوعلي بن سينا وأوضحه شارح إشاراته وموضح تنبيهاته قدّس سرهما[1] منزّلاعلى مراتب النفس الناطقة في ارتقائها إلى عالَم الربوبية .

فكانت المشكوة العقل الهيولاني لكونها مظلمةالذات، قابلة للأنوار العقلية على تفاوت استعداداتهاقُرباً وبُعداً ، والزجاجة هي العقل بالملكة لأنها شفّافـة في ذاتها ، قابلة للنور أتمّ قبول كالكوكب الدرّي .

و«الشجرة الزيتونة» هي القوة الفكرّية،والفكرلأنها مستعدة لأن تصيرقابلة للنور بذاتها ، لكن بعدحركة كثيرة وتعب. وكونها مباركة لما يترتّب عليها ويحصل لها من حدود الأشياء ، ونتائج البراهين الحقّة ، وكونها لاشرقيّة ولاغربيّة لكون الفكريجري في المعاني الكلية والمفهومات الذهنيّةـ والقضايا المعقولة ليست منغرب الموجودات الحسيّة الهيولانية ، ولامن شرق العقول الفعّالة القائمة بأنفسها ــ .

و«الزيت» هوالحدس لكونه أقرب إلى ذلك من الزيتونة ، والذي يكاد زيتها يضيء ولولم تمسسهنارُالقوّة القدسيّة ، لأنها تكاد تعقل بالفعل و[لو]لم يكن شيء يخرجها من القوة إلى الفعل .

و«نورٌ على نورٍ» هوالعقل المستفاد ، فإن الصوَر المعقولة «نورٌ» والنفس القابلة لها «نورٌ آخر» .

و"المصباح": العقل بالفعل ، لأنه منير بذاته من غير احتياج إلى نـور يكتسبه . و«النار» هو العقل الفعّال لأن المصباح يشتعل منها .

---

١) شرح الاشارات والتنبيهات : الاشارة السادسة من النمط الثالث : ٢/ ٣٥٤.

كشف إشراقي

اعلم أن قوله تعالى : ﴿لَاشَرْقِيّة وَلَاغَرْبِيَّة﴾ إذا حمل «الشجرة الزيتونة» على الأمر العقلي يكون معناه أنها خارجة عن جنس الأمكنة والأحياز ، كما يقال للفلك : إنه لاحارٌّ ولابارد ــ أي يكون خارجاً عن جنس هذه الكيفيات الملموسة .

وأما إذا حمل على الأمر الجسماني كالشجرة التي يحصل منها الزيت والقلب الصنوبري فيكون معناه الأمر المتوسط مكانه بينهما ، كما يقال للماء الفاتر إنّه لاحارٌّ ولابارد .

ويمكن حمل «الشرق» و « الغرب » على الآخرة والدنيا عند مايراد من «الشجرة» القوة الفكريّة أوالهيولي، ومعنى سلب الطرفين عنهما حينئذ يحتمل الوجهين :

إما التوسّط بين هذين الضدين . أوالخروج عن جنسهما .

ويمكن حمل «الشرق» و «الغـرب» على الوجوب والإمكان ، فإن ذات الباري سبحانه مطلع أنوار الوجودات وعالَم الإمكان مَغيب تلك الأنوار ، وفيه اُفول كواكب الحقائق الأسمائية، فحينئذ ينبغي أن يراد بـ«المشكوة» الطبيعة الكلّية السارية المختلفة في الأجسام ، و«الزجاجة» النفس الكلية المشفّة في ذاتها القابلة للنور العقلي أتمّ قبول ، و«الشجرة الزيتونة» هي القدرة الإلهية المتشعّبة إلى فنون ايجادات الحقائق المختلفة حسب اقتضاء الأسماء الحسنى ، وصوَر علم الله المتقدّمة على مظاهرها المختلفة وموجوداتها المفصّلة ، والقدرة الإلهية لكونها أمراً نسبياً لازمة للذات الأحدية ليست شرقية ولاغربية بالمعنى المذكور و«الزيت» هو إرادة الله، الموجبة للإضائة والإشراق من غير افتقار إلى انضمام الداعي إليه لكونه تعالى تامّ الفاعلية والايجاد، مستقل القوّة والقدرة لإشراق

نـور الوجود منه على العالَم ، وإن لـم تمسسه نـارُ العلّة الغائية و المصلحة الخارجية .

و« المصباح» العقل الكلّي ــ أي عالَم العقول ــ لكونه نيّراً بذاته لتقدّسه عن شوب القوة والاستعداد ومتنوّراً بالنور الفائض عن الحقّ الجواد على ذاته ، عند مشاهدته للحقّ سبحانه ، وشروق نور الله عليه ، فكان نوراً على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء من عباده وهو جميع الموجودات الممكنة الذوات ، المهتدية بنور الوجود إلى غاياتها الذاتية بتوسط النور الأول الإبداعي العقلي الذي هو غاية عالَم الإمكان .

نكتة عرشية

يمكن أن يراد بـ«الشجرة الزيتونة» مجموع عالَم الأجسام ، فإنّه كشجرة زيتونة لاشرقيّة ولاغربيّة لأن مجموع « المحدّد للجهات وماحواه » من حيث المجموع ليس واقعاً في مكان ولا جهة .

و« زيتها » قوة الوجود المطلق والطبيعة السارية فيه ، إذ لها الاستعداد لقبول الاشتعال ، والاستضائة بمراتب الأنوار قوة وضعفاً حسب تفاوت زيت الموادّ وعظم الفتيلة وصِغرها من الصوَر الجسمية الفلكيّة والعنصرية .

و«المشكوة» هي الهيولى الكلية ، أي مجموع الهيوليات .

و«المصباح» هو النفس الكلّية ، أي مجموع عالَم النفوس المتعلقة بالأجسام المختلفة في الاشتعال والنورية ، و«نوره» العقل الكلي ، أي جملة العقول المقدسة المنوّرة بنور المعرفة الإلهية ــ على تفاوت مراتبها ــ .

و كما أن أجزاء المصباح ومواضعها متفاوتة في الإنارة والإضائة ، وفي وسط أجزائه المتصلة موضع جزء هو أقوى الجميع قوّة ونوريّة فكذلك في العقول القادسة

عقل أول هو أشرف الممكنات وجوداً ، وأقواها نورية وإشراقاً ، وهو الحقيقة المحمديّة المنورة بنور معرفةالله بلاواسطة ، فيكون نوراً على نـور ولايتنوّر مَن سواه بنور الحق وشهوده إلابتوسطه ، فصحّ قوله ﷺ[1] : «لو كانَ موسى في زَمني ماوَسعهإلااتبّاعي» .

فصل

في قوله تعالى:

يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ

هـذه النور هو النّور المحمدي الكاشف لحقائق الأشياء كما هـي ، والغايـة المترتبة على وجود السابقين الأولين من الأنبياء ، لأنه بذر طوبـى عالـم الإمكان الذي غرسه يدُ الرحمن ، والثمرة الحاصلة من شجرة وجـود الأرض والسماء ، والصـراط المستقيم إلى حضرة الـرّب تعالى ، وفطرة الله التـي فطَر الناسَ عليها ، فالخَلق مفطورن بقبول النور المحمدي ، والنفوس مجبولة على طاعة الشريعة النبوية للوصول إلى المقام المحمود ، إذا لم يطرء الضلال عن سلوك الطريق ، والغواية عن الذهاب إلى الغاية المقصودة .

وفي الحديث عن رسول‌الله ﷺ[2] : «أوّل ماخلق اللهُ نوري» .

وعنه أيضاً:[3] «إن الله خلق آدم‌على صورة الرحمن» أي‌الحقيقة المحمدية

---

١) جاءمايقرب منه في البحار : ٣٦٦/١٦.

(٢) راجع الروايات الواردة في بدء خلقه «ص»في البحار : باب بدء خلقه وما جرى له «ص» . . . . : ٢/١٥ .

(٣) في البحار ١٢/٤ والبخارى ٦٢/٨ والمسند ٢٤٤/٢ :«ان الله خلق آدم على صورته» .

خلقها على صورة اسم «الرحمن» كما خلق إبليس من صورة الإسم «المنتقم» .

وعنه أيضاً : « إن الله خلق نوري من نور عزّته ، وخلق نور إبليس من نار عزّته » ، وللإشعار بأن الرّوح النبوي الختمي ﷺ ليس من جنس سائر الأرواح قوله ﷺ[1] : « لستُ كأحد كم أبيتُ عند ربّي يُطعمني ويُسقيني » .

فانظر يامسكين وتنبّه ، أن مَن كان أدنى أحواله وأنزلها كالبيتوتة والطعم والشُرب واقعة منه عند الرب تعالى كيف يكون من جنس من لايكون أشرف أحواله مثل المعرفة والفكر حاصلة عنده ؟ فإن الجسمانيات والنفوس الأرضية بل النفوس السماوية أيضاً ـ بمراحل عن أن يصعد أعمالها إلى عالَم الإلهية .

و أمّا الروحانيات العقلية فهي متفاوتة في القُرب والبُعد ، ومايصل إلى الله ويقع مقبولا عنده تعالى بلاواسطة لايكون إلا الطاعات المحمديّة والعبوديّة الأحمدية من أنوار المعارف الإلهية الفائضة على ذاته النيّرة من غير وساطة أحد ، فلايكون طاعة غيره ﷺ مثل طاعته إلا بنور متابعته ووساطته ﴿لَاتَجْعَلُوا دُعَاءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ [٢٤/٦٣] .

تذكرة :

قال سهل بن عبد الله التستري وشيبان الراعي : إنّا سمعنا من الخضر عليه السلام أنه قال : « خلق الله نور محمد ﷺ من نوره ، فصوّره وصدره على يده ، يبقى ذلك النور بين يدي تعالى مأة ألف عام ، فكان يلاحظ في كل يوم وليلة سبعين ألف لحظة ونظرة يكسوه في كل نظرة نوراً جديداً و كرامة جديدة ، ثمّ خلق منه الموجودات كلها » ـ انتهى .

وفيه إشارة الى صدور الكائنات وصوَرها و آثارها كل لحظة عدداً[2] غير

---

(١) مضى في ٣٧٣ .

(٢) كذا في النسخ .

محصور بتوسّط نـور وجود الإمكان الأشرف والجهة المحمديّـة والفيض الأقدس الذي هو بذر الموجودات وسببها الذاتـي الفاعلي المتقـدّم، وثمرة شجرة الممكنات وسببـها الغائي المتأخـّر، فهو الأول والآخر لكونـه لـبّ الألباب وللوجود خاتمة الكتاب.

تمثيل عرشي

فانظر أيّها العارف في حكمة الصانع البديع، وَجُود النافع المنيع الرفيع كيف بدء بالعقل وختم بالعاقل. وبينهما أُمور متفاضلة متواصلة.

فالعقل الأول بذر العقلاء ومبدء الفضلاء، وما عداه من العقول المتقدّمة على الأجسام سيقانه. والنفس الكلية أغصانه، والأجرام الفلكيّة عروقه وأفنانه والبسائط العنصريّة أوراقه. والنفوس الأرضيـّة أزهاره، والنفـوس الآدميـّة نفائس أثماره. والعقول المستفادة لبوب حبوبه وأنواره، والروح المحمدي لبّ لبابه ودُهنه وضوءُ سراجه.

فاعلم ماذكر وتحقّق ماتلي عليك وتدبّر ولا تحمله على المَجاز الشعري بل على التحقيق السرّي. واتل قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [٥/٣٢] وامتثل أمره فيما يقول: ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ [٧٩/٣] وإن لم تقدر على ذلك بنفسك، فاستفده من غيرك ــ فإن المؤمن مرآة المؤمن.

قال بعض العرفاء في مناجاته: «إلهي ــ ماالحكمة في خلقي؟» فألهمه الله في الجواب بقوله: «إن الحكمة في خلقك رؤيتي في مرآة روحك، ومحبّتي في قلبك». فما أعظم رتبة العبد المؤمن وما أجلـّها حيث يصير صفحة قلبـه مرآة لوجه الحق. متى أراد أن يتجلّى ذاته لذاته نظر إلى قلب المؤمن.

وقد ورَد في الخبر : «إن لله في كل يوم وليلة ثلاث مأة وستين نظرة إلى قلب المؤمن» ويؤيد ذلك قوله ﷺ[1] : «إن الله لاينظر إلى صوَركم وأعمالِكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونيّاتكم» وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [١٤/٩٦].

وقد ورد في الحديث القدسي أنه قال تعالى : «كنتُ كنزاً مخفياً، فخلقتُ الخَلْقَ لكَي أُعرَف».

وهذه الثمرة للخلق والايجاد ــ وهي معرفة الله ــ إنّما يتحقق في العبد المؤمن ــ أي العارف ــ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥٦/٥١] أي : ليعرفون . وقد ثبت أن الانسان العارف غاية ايجاد الأفلاك و العناصر والمركّبات ، لقوله تعالى في الحديث القدسي «لولاك لمـا خلقتُ الأفلاكَ» ويؤيّد ذلك قوله سبحانه : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [١٠٣/٦] وقوله : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [٥٤/٤١].

تنبيه وإشارة

لك أن تفهم من هذه الأسرار ، أن إدراك ذات الحق تعالى بعلم مستأنف لايمكن لأحد إلا في مرآة قلب المؤمن المتّقي (التقي ــ النقي ــ ن) ولهذابنى العالَم وخلق الكون وأبدع النظام لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

---

(١) في سنن ابن ماجه كتاب الزهد : باب مجالسة الفقراء ومسند أحمد : ٢/ ٢٨٥ و ٥٣٩ : «ان الله لاينظر الى صوركم وأموالكم ، ولكن انما ينظر الى أعمالكم وقلوبكم» .

[٤١/٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [٥١/٢١].

ومما ينوّر أيضاً بماذكرناه قوله ﷺ[1]: «مَن رآني فقد رأى الحقّ» وقوله سبحانه: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [٤/٨٠] وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله: «واشوقاه إلى لقاء إخواني من بعدي» وفيما رواه كميل ابن زياد عن أمير المؤمنين عليه السلام مثل ذلك في كلام طويل[2] وقول النبي ﷺ[3]: «أدّبني ربّي فأحسنَ تأديبي» يشير إلى ذلك، وفي قوله سبحانه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [١٥/٢٩] تنبيه بليغ عليه، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [٣٣/٧٢].

وفي رموز بعض أصحاب القلوب في تفسير قوله تعالـى: «كنتُ كنزاً مخفياً» ـ الحديث ـ: العبوديةُ بغير الربوبية نقصان وزوال، والربوبيـّة بغير العبودية محال.

ومن الإشارات إلى هذا المقصد قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [٤٨/٢٦] ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [٩/١١١] ومـن التأييدات اللـّطيفة لهذه الدعوى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[٣٣/٧٢] وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[١٠٣/٢] إذ قد علم من جميع ذلك، أن اللائق بنظر الحق وشهوده إنّما هو معرفة الحقّ، لا الإنسان ولا غيره من موجودات عالَم الإمكان، وإلا فما للتراب وربّ الأرباب.

وقريب من هذا ماقاله بعضُ المحققين من الحكماء: «إن القائل بأن الواجب

---

(١) البخاري: باب التعبير: ٩/٤٣.

(٢) راجع نهج البلاغة: الحكمة رقم ١٤٧.

(٣) الجامع الصغير: ١/١٤.

موجود والعاقد لهذه القضية من عالَم الإمكان ليس هو ذهن من الأذهان، بل نحو من أنحاء البرهان، فانظر إلى قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [٥٣/١ - ٥] وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [٥٣/١٠ - ١١].

كشف حال لتحقيق مقال

ياوليّي انظر إلى التفاوت بين مرتبة موسى عليه السلام، وبين مرتبة سيّدنا ونبيّنا صلى الله عليه وآله، فإنه خرّ مغشيّاً عليه عند ملاحظة التجلّي الواقع على الجبل ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [٧/١٤٣] ثمّ تاب و استغفر من طلب ما لايسع له درجته ووقته، وإن النبي صلى الله عليه وآله حكى أنه في ليلة المعراج وضع اللهُ يدَه بين كتِفي، فوجدتُ بردَ أنامله بين ثديَي[1].

وهذا الحديث مما يدلّ دلالة واضحة على عشقه تعالى لحبيبه، وإن كنت في ريب مما ذكرنا فاضمم إليه ماسمعتَه من حديث «أبيت عند ربي»[2] وحديث «من رآني»[3] وسائر مانقلناه في هذا الباب ليظهر لك حقيقةُ كلام أخيه وابن عمّه، ومساهمه في همّه وغمّه، ومشاركه في حظّه وقسمه، ووارث حوضه و باب مدينة علمه، حيث قال سلام الله عليهما وآلهما: «رأى قلبي ربي» وقوله أيضاً: «مانظرتُ إلى شيء إلا ورأيتُ الله فيه» امتثالا لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [٢٥/٤٥].

---

(١) جاء مايقرب منه فى الترمذى: كتاب التفسير، باب ٣٩: ٥/٣٦٧. والمسند ١/٣٦٨ و ٥/٣٧٨.

(٢) مضى فى ص ٨١.

(٣) البخارى: كتاب التعبير، باب من رأى النبى فى المنام: ٩/٤٢.

إشارة

اعلم أيها الحبيب إنه لا يعرفُ قدْرَ النور إلا النور ، بل كل مرتبة منه لا يعرفها إلا الواقع في جنس تلك المرتبة ، فالنور الحسّي يدرِك النورَ الحسّي، والنفسيُّ النفسيَّ ، والعقليُّ العقليَّ ، فلايدرك نورَ الكواكب إلا نورُ البصَر، ولاأنوارَ المحسوسات إلاأنوارالحواسّ،بشرط فنائها عن كيفياتها المختصّةبها.

فالقوّة اللمسية من جنس الكيفيات الأربعة، التي هي أوائل الملموسات إلا أنّها معتدل متوسّط بينها ، وقد علمتَ أن المتوسط بين الأطراف ، بمنزلة الخالي عنها ، فلذلك تقبَلُها وتُدركُها وتُحسّس بها ، وكذا الرطوبةُ اللّعابيّة الفائضة في جرم اللّسان ممّا لا طعم له في نفسه . لكن من شأنها أن يتكيّف بكيفية ذي الطعوم ، فيُدركها القوّةُ الذوقية المساوية نسبة حاملها إلى الطعوم، مع كونه واقعة في جنس الكيفيّات الطعميّة ، وقس عليـه سائر الحواس و المدارك ، وهلم إلى عالَم العقل والمعقول وما فوقه ، وفي المثل : «لا يحمل عطايا الملوك إلا مطايا الملوك» لايعرف الله غير الله (إلا الله ـ ن) » .

وقد سُئل بعضُ المشايخ : «ما الدليل على الله ؟» فقال : «دليلُه هوالله» .

وسُئل العلامةُ الرازي فخر الدين عن الشيخ العارف نجم الديـن : «بمَ عرفتَ ربّك ؟» فقال : «بواردات تردُ على القلوب فتعجز النفوس عن تكذيبها».

ثمّ وراء العقل علم ، يدق عن مدارك غايات العقول السليمة .

وقال بعضُ المحققين : «دليل معرفة الله للمبتدي عشقه وإرادتـه ، إذ هما ينبعثان عن معرفة مـّا وإن كانت قليلة ضعيفة ، نسبتها إلى المشاهدة التامة نسبة البذر إلى الثمـّرة فالمحرّك للقلوب إلى الحق تعالى هو ذاته تعالى «لاأحصي

ثناء عليك ، أنتَ كما أثنيتَ على نفسك ».

قال بعضُ المشايخ إنالله تعالى أوحى إلى رسول الله في ليلة المعراج :يا محمّد كنت دائم الأوقات ناظراً ومستمعاً ، فأنا الله سامع وناظر ، وأنت القابل، والمنظور إليه﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ .

فصل

في شرح ماهية الإنسان الكامل والعالَم الصغير ومَظهر اسم الله ، الجامع لمظاهر الأسماء كلها

وهو خليفة الله في أرضه،ومثالُ نور الله في سمائه ، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إلـه ، قال سبحانه :﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [٢/٣١ - ٣٢]

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالمَ في واحد

واعلم أنّ كل موجود من الموجودات التفصيليّة ، التي هي أجزاء هذا العالَم مَظهر اسم خاص من أسماء الله تعالى ، فكما أنّ أجزاء هذا العالَم فيها أجناس وأنواع وأشخاص،وجواهر وأعراض ـ والأعراض كمّ و كيفٌ ومتى وأينٌ ووضعٌ وإضافةٌ وفِعل وانفعالٌ وملكٌ ـ فكذلك في الأسماء الإلهيّة أسماءجنسيّة ونوعيّة، وجوهرية وعرضيّة كميّة و كيفيّة وغيرها حذو القذّ بالقذّ،وكذلك في الإنسان الكامل والمَظهر الجامع يوجَد جميعُ مايوجَد في عالَم الأسماء ومظاهر الآفاقية .

فكما أن الأسماء كلها، بحسب معانيها التفصيليّة، مندمجة في معنى اسم «الله» مجملة، فكذلك حقائق مظاهرها التي هي أجزاء العالَم الكبير الآفاقية

مجتمعة (محققة ـ ن) في مَظهر اسم الله الذي هو « الإنسان الكامل » والعالَم الصغير باعتبار ، والكبيـر بل الأكبر باعتبار آخر ـ وهو اعتبار إحاطتـه العلميّة المنبعثة عن معدن علم الله بجميـع الموجودات ومباديها وأسبابهـا وصوَرها وغايـاتها ، كما أشار إليه أميرُ المؤمنيـن وإمام العارفيـن ورئيس الموحدين: عليه السلام :

وأنتَ الكتـابُ المبيـن الذي　　بآياتـه يظـهر المضمـر

وتزعـم أنـّك جرمٌ صغيـر　　وفيـك انطوى العالَم الأكبر

فنقول في تبييـن ما ذكرنـاه من المقدّمات و توضيح ما ادّعينـاه من الحكايات :

أما أن كل ممكن من الممكنـات مظهر اسم خاصّ فلأن المناسبة يجب أن تكون ثابتـة بين المفيض والمفاض عليه ، فتعدّد الكمالات و كثـرة صوَر المعلومات يدلّ على تحقق تلك المعاني الكليـة (الكمالية ـ ن) والخيرات في أسبابها وعللها على وجه أعلى وأتمّ، من غيرلزوم تكثّر وتجسّم في علّتها الأولى ـ كماثبتَ في الحكمة المتعالية ـ .

وليس المراد من كل اسم من أسماء الله إلا ذاته تعالى مأخوذة مع صفة خاصـّة من الصفات الكمالية أوالسلبية أوالإضافية، كالحيّ والقادر والقدّوس، فذاته تعالى متـّصفة بجميع الصفات الحسنة الكماليـة ، ومنـزّهة عن جميع النقائص والمثالب والعيوب، وله الإضافة القيوميـّة إلى كلّ ماسواه .

فبملاحظة اتّصافها بماهو من قبيـل الأول منشأ الأسماء الجمالية اللطفيـّة الثبوتيـّة، وبملاحظة تقدّسها عماهو به من قبيل الثاني منشأ الأسماء الجلاليـّة القهريـّة السلبيـّة ، وبملاحظة إشراق نوره وشهوده وإفاضة جُود وُجوده على الموجودات منشأ الإضافية التعلقيـّة ،ولما وجب تحقّق المناسبةبين المفيض و

المفاض عليه، فكل ماكان أشد مناسبة كان أقرب في درجة المعلولية .

و كل فاعل حقيقي للممكنات فهو علّة غائية أيضاً ــ كما حقّق في موضعه فيجب أن يكون الصادر منه في سلسلة بحسب القُرب والبُعد النزولي صاعِداً إليه في سلسلة اُخرى بحسب القُرب والبُعد الصعودي .

وهذا أمر ظاهر بحسب الاستقراء التامّ في كل جملة إمكانية، صادرة عن فاعل طباعي لأجل غاية ذاتية ، وله بيان تفصيلي يحتاج إلى استقصاء مباحث العلـّة والمعلول ، وأحكام العلة الغائيـة التي مرجعها إلى تحقّق العلـة الفاعلية على الوجه الأكمل الأتم ، سواء كانت العلة الغائيـة متأخّرة في الوجود عن العلـّة الفاعلية ــ كما فيماتحت الكون ــ أم تكونـان ذاتاً واحدة ــ كما فيما فوق الكون .

فإذا تقرّر هذا فأشرف الموجودات الصادرة عنـه تعالى في سلسـلة الابتـداء هو « العقل الأول » والممكن الأشرف ، ثمّ الأشرف فالأشرف إلى الأخسّ فالأخسّ حتى انتهت نوبة الوجود إلى الأجسام ــ وهي موادّ الصنايع الإلهيّة بمنزلـة قطع الخشَب للنجّار ــ ثمّ يبتدىء منه الاستكمال بالصور و الارتقاء إلى غاية الكمال، فيتصوّر بصورة بعد صورة وبهيئة بعد هيئة كالصور والهيئات المترادفـة على الخشب بفعل التشكيلات والتخطيطات المتواردة عليه من صنع النجّار ، فيتعاقب الصوَر على المواد بحسب تكامل الاستعداد من الأخسّ فالأخسّ إلى الأشرف فالأشرف، والبرائة عن النقص والفتور، و التجرّد عن الدثور والقصور، إلى العقل المستفاد المتصل بالعقل الفعـّال، و هو أعلى مرتبـة الوجود في العالَم الإمكاني لكونـه مشتملا على صوَر جميع الموجودات ــ عقلية وحسيـّة ، من حيث ذاتـه ونفسه وجسمه ، كما سنشير إليه .

فبالعقل المستفاد عاد الوجودُ إلى المبدء الذي ابتـدء منه ، وارتقى إلى ذروة الكمال بعد أن هبط منها ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَلَّ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[١٠٤/٢١].

و كما أن العقل الأول مشتمل على جميع ماصدر منه ـ من الخيرات و الوجـودات والصوَر والهيئـات بحسب الفطرة الأولى ـ فهكذا العقل الذي وقـع بإزائه، بل يكون عينه بوجه ـ كما أدّى إليه نظر الواغلين في الرياضة و البرهان،و الممعنيـن في التجرّد والايمان ـ مشتمل على جميـع ذلك بحسب التحصيل والاكتساب للفطرة الثانية الوجودية المطابقة للفطرة الأولى العلمية القضائية .

وهذا مفاد قول فاضل الفلاسفـة أرسطا طاليـس : « من أراد الحكمةَ فليستـحدث لنفسه فطرة ثانيـة » فإن الحكمة عندهم هي التشبـّه بالإلـه بحسب الطاقة البشرية، وهي إنما تحصل بحصول العقل الفعال .

دقيقة الهامية

وهـهنا دقيقـة أُخرى لايقدر جماهير الفضـلاء أن يدركها ـ فضلا عن غيرهم من أُسراء الوهم والخيال ـ وهو أن العقل الفعـّال مع أنه فاعل متقدّم على غيره من الممكنات ، فهو بعينـه ثمرة حاصلة من وجوداتها المترتـّبة في الاستكمال والارتقاء إلى الكمال، وهذا من أعجب العجائب مع أنه حقٌّ لامرية فيه لهذا الفقير المنكسر البال، المشوّش الحال .

إنارة تذكُّرية

إن أسماء الله تعالى مشتملة على جميـع المعانـي المنطقيـّة والعينيـّة، و جميـع الحقائق الجوهرية والعرَضية، و كما أنك إذا نظرتَ في حقائق الأشياء

وجدت بعضها متبوعة مكتنفة بالعوارض، وبعضها تابعة، فنقول على المتبوعة إنها «الجواهر» وعلى التابعة إنها «الأعراض» فاعلم أن معنى «الجوهريّة» باعتبار اشتراك الجواهر فيه واتحادها في عين جمعه مظهر للذات (الذات ـ ن) الإلهية من حيث قيّوميّتها، وتحقّقها بذاتها، وأن الأعراض حسب اختلافها واشتراكها في مفهوم العَرَضيّة العارضة لها مظاهر للصفات التابعة للذات، مع اشتراكها في كونها صفة تابعة لها من حيث المفهوم والمعنى، وإن كان الوجود واحداً للذات والصفات.

ثمّ كما أنّ حقيقة الجواهر لا تزال مكتنفة بالأعراض فكذلك الذات الإلهية محتجبة عن غيره بالأسماء والصفات، وكما أنّ الجوهر مع انضمام صفة من الصفات، يصير جوهر أخاصاً مظهراً لاسم خاصّ، فكذلك الذات الإلهية مع اعتبار صفة خاصة اسم خاصّ من الأسماء الكلية والجزئية.

وكما أن الصفات المخصصة للجواهر ـ كالفصول وغيرها ـ بعضها أعمّ و بعضها أخصّ كالفصول القريبة والبعيدة وتوابعها، حتى يصير الجوهر بتضمينها أو انضمامها جنساً خاصاً أو نوعاً، فكذلك من الصفات الإلهية ما هي أعمّ و أكثر حيطة، ومنها ما هي أخصّ وأقل حيطة، فيكون الاسم الحاصل من انضمام ماهي أعمّ بمنزلة الجنس للاسم الحاصل من انضمام ماهي أخصّ وهذا بمنزلة النوع ؛ مثال ما هو بمنزلة الجنس لما هو بمنزلة النوع «العالِم» بالقياس إلى «السميع» و «البصير».

وكما أن من اجتماع الجواهر البسيطة يتولّد جواهر اُخر مركبة، كذلك يتولّد من اجتماع الأسماء الكلية أسماء اُخر.

وكما أن الجوهر قد يكون نوعاً بسيطاً في الخارج مركباً في العقل بحسب التحليل الذهني كالعقل والنفس وغيرهما ـ وقد يكون مركّباً خارجياً من أجزاء

معنوية وجودية ـ كالمادّة والصورة ـ أو من أجزاء متخالفة الطبايع ـ كالمركبات المعدنية والنباتية والحيوانية ـ فكذلك في أنواع الأسماء ما هو بسيط عيني ذا حدّ تفصيلي كـ«الحيّ» فان مفهومه مركب من «الدرّاك الفعّال» وما هو مركب كـ«الحيّ القيوم» .

وكما أن كليات الجواهر والأنواع منحصرة فكذلك كليات الأسماء منحصرة .

وكما أن أشخاص الجواهر غير متناهية فكذلك فروع الأسماء غير متناهية فكما أن الجملة مشتركة في طبيعة واحدة وجودية ـ لأن الوجود الممكن حقيقة واحدة وهي المسمى بالنفَس الرحماني، والهيولى العقلية الكلية الحاملة لصوَر الجواهر العقلية والحسيّة وحقائقها كذلك الأسماء الكليّة يشملها ذات واحدة إلهية جامعة لجميع الأسماء على اختلاف معانيها .

ثمّ لما كانت التجليات الإلهية المُظهرة للصفات المتكثّرة بحكم : ﴿كُلَّ يَومٍ هُوَ فِي شَأنٍ﴾ [٢٩/٥٥] غير متناهية ـ مع تناهي ضوابطها المتكـرّرة الوقوع ـ صارت الأعراض متكثّرة غير متناهية ، وإن كانت الأمّهات متناهية وكما أن أمّهات الأعراض منحصرة في تسع مقولات كذلك في أمّهات الصفات وكلياتها توجد معان تناسبها تلك المقولات .

فكل مافي الوجود دليل وآيةٌ على مافي الغيب فـ«القيّوم» مناسب للجوهر و« القدّوس » للأنواع المجردة منـه ، و« المصوّر » للصوَر الجوهريـة ، و «الأول والآخر» يناسب مقولة متى ، و«الرافع والخافض» يناسب مقولة أين ، و «المتقدّم والمتأخّر» لمقولة وضع ، و«المحصى» للكمّ المنفصل ، و«الكبير والعظيم والباسـط » للكمّ المتصل ، و«السميع والبصير» للكيف النفساني ، و «العليّ الأعلى» للإضافة ، و«مالكُ الملك » للجَدَةِ ، و « المبْدع » للفعل ، و

« قابل التوب »للانفعال .

وعند الاستقصاء يظهر أن كل معنى من المعاني الموجودة في عالَم الشهادة يكون ظلّا دالّا على ما في غيب عالَم الأسماء ، ثمّ في غيب عالَم القضاء الإلهي ـ أعني القلَم العقلي ـ ثمّ في عالَم القدَر النفساني ـ أعني لوح العلوم القضائية المسمّى بـ «اُمّ الكتاب» ـ ثمّ في عالَم الألواح السماوية ونفوسها الانطباعية الخياليّة المسمى بـ « كتاب المحو والإثبات » و« الدفتين الزمردتين » لقوله تعالى : ﴿يَمْحُوا ٱللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ﴾ [١٣/٣٩] .

هداية

قد انكشف لك ودريتَ مما سرد عليك أن هذه العوالم كلها كُتب إلهية وصحائف رحمانية ، لاحاطتها بصور الحقائق والمعاني ،واشتمالها على الأرقام والخطوط الدالّة على المَحامد السبحانية ،والأثنية الربّانية ،يتلوها القاري العارف بقوّة فكره وصفاء سرّه وسلامة طبعه عن كدورات هذه التعلقات ، وتجرّد ذهنه وجلاء عينه عن علوق هذه الغشاوات ، فيطالع ما فيها ، ويتدبّر فـي معانيها و يرتقي من بعضها إلى بعض ، حتى يصل إلى منشيها وراقمها وممليها وناظمها قائلا : ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَىٰ ٱلْمَسْجِدِ ٱلأَقْصَى ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَولَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [١٧/١].

كلمة جامعة

الإنسان الكامل كتاب جامع لآيات ربّه القدوس ، وسجلّ مطويّ فيه حقائق العقول والنفوس ، وكلمة كاملة مملوّة من فنون العلم والشجون ، ونسخة مكتوبة من مثال « كُن فيكون» بل أمرٌ واردٌ من «الكاف والنون» لكونه مظهر اسم الله

الأعظم الجامع لجميع الأسماء.

فمن حيث روحه وعقله قلم مقدّس مسمى بـ«ام الكتاب» لكونه مشتملا على معظم الحقائق العقلية الكلية على الوجه المقدّس العقلي، ومن حيث قلبه الحقيقي ـ أعني نفسه الناطقة ـ «كتاب اللوح المحفوظ» لكون نقوشه محفوظة أبداً بحفظ قلم الكاتب لهذه الأرقام، الفعّال للمعقولات التفصيلية في لوح قلبه، ومن حيث نفسه الحيوانية الممثّلة للصور المثالية «كتاب المحو والإثبات» ومن حيث طبعه الجسماني القائم باللطيفة البخارية المشابه لجرم السماء القابل لأنوار الحواسّ والضياء «دفتر جسماني» و«سجلّ هيولاني».

والغرض في ايجاده وتكوينه لمجرّد المشق والحساب، كالتخت والتراب لفائدة التمرّن لطفل النفس قبل أن يبلغ مقام الرجال، مثل لوح الأطفال ولهذا يمحو ما فيه وينطوي سريعاً، لكونه من جنس كتاب الفجّار، الملقي في النار، وأما ما سواه من الكتب الأربعة الأصول فهي كلّها صحفٌ مرفوعة مطهّرة، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَة، باقية إلى يوم الدين، لايمسّها إلا ٱلْمُطَهَّرُونَ من الحجب الجسمانية، لكونها في عليين ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

وهذا الكتاب الأخير المحاذي لصورة السماء، محترقة أوراقها بنار الطبيعة كما أن سجلّ دورات السماء مطويّة يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَاءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [٢١/١٠٤] ولكن بمقتضى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [٢١/١٠٤] يعاد مثله يوم القيامة ويحشر، وهو البدن الأخروي، المنبعث من هذا البدن الداثرة الدنيوي، المقبور بعد الموت، و يبقى كتابه يوم القيامة، وهو الكتاب الذي أشير إليه بقوله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ＊ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ

عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [١٧/١٤].

وهو الكتاب المنقسم إلى كتاب الفجّار ـ الذي يلقي فـي النار ـ و إلى كتاب الأبرار الذي يأتي آمناً يوم القيامة لقوله : ﴿أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ [٤١/٤٠] و هما المشار إليهما بقوله تعالى : ﴿إِنَّ كِتَابَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّين﴾ [٨٣/٧] و قوله : ﴿إِنَّ كِتَابَ ٱلْأَبْـرَارِ لَفِي عِلِّيِّين﴾ [٨٣/١٨].

نورٌ جمعيٌّ و مظهر جامع إلهي

قد وقعت الإشارة إلى أن الإنسان الكامل كلمة جامعة و اُنموزج مشتمل على ما في الكُتب الإلهية التي كلّها أنوار مكتوبةُ بيد الرحمن، منقوشةٌ على صحائف الأكوان، مستورةٌ عن أعين العميان، كما أن الروح الأعظم جامعٌ لجميع ما في العالَم الكبير، لكونه مبدء الكل وصورة الكل وغاية الكل وبذر العقول والنفوس، وثمرة شجرة الأفلاك وما فيها من أنوار المعقول والمحسوس .

فالآن نريد أن نشرح لك مراتبَ العالَم الإنساني وأسمائه، ونبيّن أن الـروح الإنساني والعقل الأخير الربّاني في درجة القُرب عند الله في عالَـم العود والصعود مماثل للروح الأعظم والعقل الأول القرآني في عالَم البـدو والنزول، وسلطانه يوم القيامة ويوم العمل كسلطان الروح الأعظم يوم الأزل، لاشتمال كل منهما على جميع المراتب الوجودية .

بل العقل الأول والروح الأخير ـ وهو الحقيقة المحمديّة ـ ذات واحدة ظهرت مرتين، مـرّة في الإدبار إلى الخلق لتكميل الخلائق ومرّة في الإقبال إلى الحق تعالى، لشفاعتهم، لقوله ﷺ [١] : « أول ما خلق الله نوري » وقوله

---

١ ـ راجع الروايات فى البحار، باب بدء خلقه (ص) :١٥/٤ـ٢٨ .

«أول ماخلقَ اللهُ العقلَ ، قال له : «أقبِل» فاقبَلَ ، ثم قال له : «أدبِرْ» فأدبَرَ ، قال: «فبعزّتي وجلالي ما خلقتُ خلقاً أعظم منكَ ، بكَ أُعطي وبكَ آخذُ ، وبكَ اُثيبُ ، وبكَ اُعاقبُ» ورواه الشيخ الجليل أمين الاسلام ، ثقة المحدّثين محمد بن يعقوب الكليني في أول كتاب العقل من كتب الكافي ، وهو حديث متّفقٌ على صحّته الجميع .

فكما أن الروح الأعظم مشتمل على جميع الممكنات علماً وعيناً ، فكذا هذا الإنسان الكامل وخليفة الله في السموات والأرض .

أما اشتمال الروح الأعظم عليها علماً : فلما مـرّ من أنه قلمُ الحق الأول الناقش لصوَر الحقائق على وجه مقدّس عن الكثرة والتفصيل ، ثمّ الكاتب لأرقام الأسرار على ألواح الأقدار ، ولأن اللوح المحفوظ بما فيه من الأرقام والنقوش صادرٌ عنه وحاضرٌ لديه ، فهو مطالِعٌ لما فيه ـ مطالعة العقل للأفكار الناشية منه ، المرتسمة في لوح النفس ، ثمّ في لوح الخَيال والحسّ .

وكذلك حكم سائر المَشاعر الكلّية والمَدارك الفلكية والأرواح القدَريّة بما فيها من الأرقام المثالية ، والنفوس الجزئية الخيالية الحاصلة في النفوس المنطبعة السماوية وكذا الصـوَر الأرضيّة ، المنقوشة على الألواح الهيولية ـ إذ كلّها صادرة منه بإذن ربه ، حاضرة عنده ، يشاهدها بنور ربّه ، الـذي ينوّر به السماوات والأرض .

وأيضا كل واحد من الجواهر العقلية والنفسية ، والصوَر السماوية الحسيّة ، والأنوار القمرية والشمسيّة عيونٌ ناظرة ، ومدارك ساطعة ، ومرائي مجلوّة ، يُدرك بها الأشياء وينال بها مافي عالَم الأرض والسماء .

وأما اشتماله عليها عينا: فلأن ذاته صورة الكل ، كما أنه فاعلها وغايتها . والصورة في كل حقيقة تركيبية وماهية نوعية هي تمام تلك الماهية ، أوَ لاترى

أن «السريرَ» سريرٌ بهيئته المخصوصة ،لابمادّته الخشَبية الإبهاميّة ، والحيَوان بنفسه وحسّه حيوان لابيدنه وجسمه و كذا العلّة الفاعلية تمام حقيقة المعلول ، إذ المعلول رشحٌ وفيضٌ من وَجـوده ، وهو أن العلّـة كالشعاع من الشمس ، والحرارة من النار ، والنَداوة من البحر ، كما أوضحه الإلهيون في علومهـم الربانية ،وأما الغاية فهو تمام الفاعل بما هو فاعلٌ وكماله .

وأما اشتمال الروح العقلي للإنسان الكامل على جميع الممكنات فلأنـه كتاب مبين مشتمل على اُنموذجات العـوالم وحصصها وجـزئياتها وأفرادهـا وذلك قبـل اتّصاله بالملأ الأعلى والروح الأعظم ، وأما عند الوصول فـلا فرق بينه وبين قلم الحق الأول في اشتماله على الكلّ.

حكمة إلهية في كلمة آدمية

إن من عجائب صُنع الله وبدايع فطرته خِلقة الإنسان الذي فطَره الله عالماً مضـاهياً للعالَم الرباني ، وأنشأ الله نشأة جامعة لجميـع مافي سائر العوالـم والنشـئات ، بل ذاتاً موصوفة بجميـع نظائر ماوصف به ذاته الإلهية ، مـن النعوت الجمالية والجلالية ، والأفعال والآثار ، والعوالم والنشئات والخلائق والقلم واللوح ، والقضاء والقدَر ، والملائكة والأفلاك ، والعناصر والمركّبات والجنة والنار ، والرضوان والمالك .

وبالجملة أبدع الإنسان الكامل مثالا له تعالى ذاتاً ووصفاً وفعِلا. ومعرفة هذه الفطرة البديعة ، والنظم اللطيف والعلم بهذه الحكمة الأنيقة والأسرار المكنونة فيها سرّ عظيم من معرفة الله ، بل لايمكن معرفته تعالى إلا بمعرفة الإنسان الكامل وهـو باب الله الأعظم والعروة الوثقى ، والحبْل المتيـن الذي به يرتقى إلـى العالم الأعلى ، والصراط المستقيم ، إلى الله العليم الحكيم والكتاب الكريم

الـوارد من الرحمن الرحيم ، فيجب على كل أحد معرفة ما في هذا الكتاب المكـنون ،وفهم هذا السرّ المخزون .

وهذا معنى وجوب معرفة النبي ، ومعرفة الإمام عليه السلام «من مات ولم يعرف إمام زمانه مـاتَ مَيتة جاهليّة»[1] لأن حيوة الإنسان في النشأة الدائمـة إنما هي بمعارف الحكمة الإلهية ، والإنسان الكامل ينطوي فيه الحكمة كلّها ، وهو مفاد قوله صلى الله عليه وآله[2]:«مَن أطاعَني فقَدْ أطاعَ اللهَ» وقوله أيضاً[3]:«من عرفَ نفسَه فقد عرف ربّه» .

والمراد به نفس النبي تحققاً لقوله تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [٦/٣٣]وذلك لأنّ الحقيقة النبويّة ، بنور هدايته كمل نفوس المؤمنين ، ونوّر عقول الآدميين ، وأخرجهم من القوة إلى الفعل ، وأفاض عليهم العلم النوري ، وأفادهم الوجود الأخروي ، فيكون ذاته علة لتحقّق الحكمة والايمان فيهـم ، ومحصّـل ذواتهم بحسب الوجود البقائي والثبوت السرمدي ،والعلّة الفاعليـة للشيء ، أولى به من نفسه ، لأنّ الشيء مع نفسه بالإمكان ، ومع علّته ومكمّله بالوجوب ، والوجوب والكمال أولى بالشيء من الإمكان والنقصان .

فافهم وتأمّل في ما أفدناكَ من معنى وجوب اتّباع النبيّ والإمام ، وكونهما مقوّمين لذات المؤمن بما هو مؤمن . فإنه يتيمة الوقت ، لم تجد في غير هذا المقام ، والله الهادي إلى دار السلام .

مرآة آدمية فيها آيات ربّانية وأنوار رحمانية

ولنذكر أنموذجاً من كتاب الحكمة الإلـهية ،ولُباباً من المعاني القرآنية

---

١) جاء الحديث بألفاظ مختلفة راجع الكافي : ١/٣٧٦ ومجمع الزوائد: ٦/٢٢٤.
٢) مضى .
٣)مصباح الشريعة : ١٤ .

المسطورة في هذه النسخة الآدمية ، المكتوبة بخط معجز إلهي ، وهو الكتاب المبين واللوح المنقوش بنقوش كرام الكاتبين ليكون دستوراً لك في دراسة هذا الكتاب ، الذي ناولك الحقُّ الأول وفهم مقاصده ،وهذا المزبور المسطور المهـدي إليك من جانب الربّ الغفور فيه تحقيق المسائل الإلهية ، وتبيين المعارف الربوبية المستنبطة من أرقامه ومبانيه، فنقول :

اعلم أن الإنسان الكلي بحسب أصل ذاته التي بما هو هو موجود ، بل وجود:قائمٌ بنفسه،مجرّد عن الزمانوالمكان مقدس عن الحلول والإشارة الحسّية والانقسام ، نور من أنوار الله المعنوية ،وسرٌّ من أسراره العقلية ، ووجه من وجوه قدرته ، وآية مـن آيات حكمته ، وعين من عيون إلهيته ، وكلمة مـن كلمات علمـه وإرادته ، وهـذه الصفات الذاتية له كلها مأخوذة مـن الصفات الذاتية الإلهية ، والنعوت الجلالية الكبريائية ،وقد ظهرتْ في عبد من عباده .

وأما بحسب أحواله وصفاته الـلازمة والعارضة فهو عالم ، قادر مريـد ، سميع بصير حيّ متكلم ــ إلى غير ذلك من الأوصاف ــ وهذه كلّها تضاهي صفات الله الجلالية (الكمالية ــ ن) والجمالية . لأن كلّها من كمال الموجود بما هو موجود: فإذا وجد في المعلول فلا بدّ وأن يوجد في العلّة المفيضة على وجه أعلى وأشرف .

وأما بحسب أفعاله : فأفعاله كأفعال الباري جلّ ذكره ، وكما أن أفعالـه تعالى منقسمة إلى ما يدخل فيه الزمان والمكان والحركات والموادّ ــ وهي المسمّاة بالكائنات ــ وإلى ما يـدخل فيه الأمكنة والمـوادّ ، دون الأزمنة والحـركات ــ وهي الاختراعيات ــ وإلـى ما يرتفع عنهما بالكلّية ــ وهـي المسماة بالإبداعيات ــ فـكذلك الفعل الصادر عن جوهر ذات الإنسان ، بعضه يشبه الإبداع ــ وهو مالايفتقر فيه إلـى آلة وحركة كإدراكه المعارف الحقيقية

والأحكام الحقة اليقينية ، و كايمانه بالله وملائكته و كتبه ورسله ، وإذعانه ليوم الآخرة ، ورجوع الخلائق إلى الخالق ـ وذلك عند صيرورته عقلا مستفاداً عقيب تكرار الإدراكات وتكثّر المشاهدات ، حتى صار مستغنياً في إحضار مخزوناته وإفادة معقولاته عن الآلات والحركات الفكريّة بل كلما توجّه إلى معقول حضر ذلك المعقول عنده ممثّلا (ماثلا ـ ن) بين يدي ذاته المجردة .

وبعضه يشبه الاختراع ـ كالحال عند تمثّل الصورله في الخيال، فإن افادة العقليّات تشبه الإبداع ، والخياليات تشبه الاختراع ، و كذلك أفاعيله الطباعية الواقعة منه في البدن من غير فكر وروية ـ كحفظ المزاج، وجذب الغذاء ودفعه ، وتصوير الأعضاء وتشكيلها بإذن الله و كلمته وتأييد من عندالله بجنود لم تروها .

وبعضه يشبه التكوين ـ وهو أفعاله الظاهرة الحاصلة بإرادته وقصده وحركته كالكتابة والأكل والشُرب وساير أفعاله البدنية والنفسية التي فيها مصلحة أعضائه وقواه وجنوده الظاهرة بحسب معاشه ودنياه ، بحيث يؤدّي أولاه إلى اصلاح معاده وأخراه يستعد بذلك السعادة القصوى .

وأما من حيث مملكته وعالَمه وإجراء أوامره في عباده وبلاده ، فعالَمه الصغير أعني بدنه ومايرتبط به يضاهي مجموع العالَم الكبير أعني السموات والأرض ومايتعلق بهماوأمره في أفراد عالَمه يضاهى أمر الحق في أفراد العالم فكما أن لأفعال الله سبحانه من لدن صدورها من مكامن غيبها إلى مظاهر شهادتها أربع مراتب ـ وهي العناية ، والقضاء ، واللوح ، والقدر الخارجي ـ كما أشرنا إليه فكذلك لأفعال خليفة الله وصدورها أربع مراتب :

لأن كلّما يصدر عنه فقد وجد أولا في مكمن سرّه الذي هو غيب غيوبه ، وعقله الإجمالي ، و كتابه القرآني ، ثمّ ينزل إلى حيّز قلبه الباطني ونفسه الناطقة عند استحضاره بالفكر وإخطاره بالبال ، كاحضار التصورات الكلية والقضايا

الكلية أو كبريات القياس بمدد بعض ملائكة الله العلوية ، عنـد الطلب للامر الجزئي وتحصيله خارجاً واحضاره من حد العلم الى حد العين ، فينبعث عنه العزم على الفعل .

ثم ينزل على مخزن خياله متشخصة جزئية، وهو موطن التصورات الجزئية وصغريات القياس، بيد بعض الملائكة المدبرة السفلية ، ليحصل بانضمامها الى تلك الكبريات رأي جزئي ينبعث عنه القصد الجازم للفعل ، ثم يتحرك أعضائه عند ارادة اظهارها بيد بعض جنود الله المحركة ، فيظهر ذلـك الفعل المقدر على وفق الارادة التابعة للتصور والتفكر .

فالفعل (فالعقل ــ فالتعقل ــ ن) الاول بمنزلة العناية والقضاء الاجمالي ــ ومحله وهــو الروح العقلاني بمثابة القلم ــ والصورة الثانية بمنزلة نقش اللوح المحفوظ ، والثالثة بمثابة الصورة في السماء ، فـان الروح الدماغي بمنزلة السماء ،وجوهر الدماغ ومخّه بمنزلة هيولاها ، والقوة الخيالية بمثابة نفس الفلك المنطبعة، والصور الخيالية بمنزلة صور الاشياء في عالم السماء قبل وجودهـا في المواد الخارجية ، والرابعة بمثـابة الصور الحادثة في المواد الخارجية العنصرية .

وعند ذلك تحرك الاعضاء بمنزلة حركة السماء ،ووجود الكتابة وغيرها من الانسان في مادة خارجية عنه موضوعة لفعله وصناعته بمنزلة وجود الاكوان الخارجية في المواد العنصرية ، وسلطان العقل الانساني في الدماغ كسلطان الروح الاعظم في العرش، وظهور قلبه الحقيقي الذي هو نفسه الناطقة في القلب الصنوبري، كظهور النفس الكلية الفلكية في الشمس التي هي مثال نور الله تعالى في عالم الاجرام ، لانها نور السموات والارض في عالمنا

فيكون على هذا نور الشمس بمنزلة «المصباح» و«زيتها» صورتها النوعية التي تكاد تضيء ولو لم تمسسه نار النفس المجردة الشمسية ، والفلك كالزجاجة

والهيولى كالمشكوة ، والقوة الطبيعية السارية في العالم الجسماني هي الشجرة المباركة ، وهي ليست من شرق الجواهر العقلية ، ولا من غرب الابعاد المادية «يكاد زيتها يضيء» وينور الانوار الجسمية «وان لم تمسسه» نار النفس الكلية المقومة لها ، لكونها خليفة النفس في عالم الطبايع ، كما ان النفوس والعقول خلفاء الله في عالم الارواح و«نور على نور» هو النور الحسي من الشمس ، المنضم الى نور نفسه المجردة ، او نورها النفسي المقوم لنورها الحسي العالي عليـه .

فعلى هـذا التأويل يكون النّور الحسّي للجرم الشمسي مثـالا للنّور الواجبي الذي هو بمثابة شمس الانوار العقليّة ، واما فـي سائر التأويلات الحقيقية التي ذكرناها فهي بمعزل عن أن يكون نورها الحسّي معدوداً مـن نـور السموات و الارض ، بـل يكون معدوداً مـن جملة الظلال و الرمـاد و المداد لكلمات الله المكتوبة من القلم العقلي ، على الالواح النّفسانيّة او الاقدار الخارجيّة ، كما ورد في النّظم الفارسي :

دوده كُندَم دبيرِ أنجُم   از دودِ چـراغِ چرخِ چارُم

إشراقات وإشارات

قد انكشف لك مـمّا وتحنا على قلبك بإذن الله أبوابه ، وقرأنا عليك من كتاب الحكمة لُبابَه أسرارٌ لطيفةٌ في مسائل معرفة الله ، وآيات عظيمة من صحائف ملكوته ، وبدايع فطرته وَجُوده ، ونتايج رحمته وأشعّة شمس وُجوده ، ولو أخذت الفطانة بيدك عند ملاحظة مملكة الآدميّ ونفوذ أمره في قواه وآلاته ، وإحاطة علمه بما هو في عالَمه وطبقات موجوداته ، وسراية نوره في صوَره العلميّة ونقوشه الإدراكيّة الحاصلة في مرآة ذاته ، ثمّ المرتسمة في ألواح تصوّراته التي هي

بمنزلة عالم سماواته، ثمّ الحالة في محالّ جرميّاته ومادياته التي هي بمنزلة عالم أرضه وكائناتــه : لرأيتَ بعيــن هذا الإشراق أنّ هويـّته الروحيـّة هي مظهر الهوية الغيبيـّة اللاهوتية ، وأن هويـّته النفسية هي مظهر اسم الله ومثال نوره النافذ في سمائه وأرضه،فتحققت بمعنى آية النور على أحكم طريق وأتقنه، و علمتَ علماً شهودياً نوريّاً وإشراقاً كشفيّاً حضورياً أن الله نور السموات و الأرض .

فإن جميع مايوجد في مملكة الآدمي وعــالمه إنـّما وجودها وظهورها بنور هويته المستورة عن الخلق،لغاية ظهور آثارها وكثرة أفاعيلها وأنوارها فصارت أفعالها وآثارها حجُباً للخلق عن رؤية ذاتها ومشاهدة جمالها وجلالها كما أن ظهور العالم الكبير ومظاهر أسمائه تعالى، حجُب للخلق عن مشاهدة الرب تعالى وجماله وجلاله. وبه أشرقت الأرضُ والسماء، وهو النور الذي ظهرت به مظاهرُ الأسماء .

وكما أن بذاتك النـّيرة العقليـّة، حصلت وانكشفـت وتنـّورت الصوَر الإدراكيـّة العقليـّة والنفسيـّة والخياليـّة و الحسيـّة في مراتـب مدار كك القضائيـّة والقدريـّة واللوحيـّة والقلميـّـة ، فبذات القيـّوم الإلهـي تقوّمت و تنوّرت كل مافي العوالم والنشآت، والألواح والأقدار والأراضي والسموات تقوّماً ظهورياً شهودياً، وتنوّراً تحصليّاً وجودياً .

فاشكرْ ربك سبحانــه في إعطائه لك مفتاحاً لخزائــن الرحمة والجود ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِــحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا اِلاّ هُوَ﴾ ــ الآيـة ــ [٦/٥٩] بل كنزاً مخفياً يحصل منه كل بغيـة ومقصود ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَاتُبْصِرُونَ﴾ [٥١/٢١] ودُرّاً ثميناً يسهل بــه الوصول إلى كل موجود ، ومرقاة للصعود إلى معارج الحق المعبود ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ اَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [٤١/٥٣] .

فمامن مطلب إلا ويوجد فيه، ومامن بغية إلا ويتيسّر منه حصوله لمتأمليه، فهو الطلسم الأعظم، والترياق الدافع للسمّ، والفاروق الأكبر، وباب حكمة الله الأنور، والكتاب المبين، والسرّ المكتوم، والنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون، ومعنى حرفي الكاف والنون، والقرآن المبين، والعروة الوثقى و الحبل المتين، مطردة الشياطين، وليلة القدر، والاسم الأعظم، ويوم الجمعة والمسجد الأقصى، والكعبة والحرَم، والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور، والرقّ المنشور -- إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته التي لاتعدّ ولا تحصى.

حكمة محمدية

اعلم أيها السالك وتدبّر وتفكّر، وانظر ماسطّر في هذا المسطور، ونوّر بصرك بسواد أرقام هذا المزبور، وتيقّن أن الصراط المستقيم والسبيل إلى الله الكريم ليس في الأرض ولا في السماء، ولا في البرّ ولا في البحر، ولا في الدنيا ولافي الآخرة، بل في ذات السالك الذاهب منه فيه إلى ربّه ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [١٢/١٠٨].

دوائك فيك ولا تشعر وداؤك منك ولا تبصر

وهو قلم الحقّ الأول، المعلّم للإنسان مالم يعلم ﴿وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ - الآية - [٤/١١٣] وهو لوح الله المأخوذ بيد الأنبياء والأوصياء. لقوله تعالى: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى﴾ [٧/١٥٤] ﴿مَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ - [٧/٥٩] وهو القرآن المبين وحبل الله المتين، فإن القرآن خُلق الإنسان الكامل. كما روي عن بعض أزواجه، ﷺ أنها قالت

حين سُئلت عن خُلقه ﷺ :«كان خُلقُه القرآن»[1].

وكل مافي الأرض والسماء فهو في هذا المسمّى بجميع الأسماء، لأنه كتاب مبين لارطب ولا يابس إلا فيه ، ففيه النعيم ولذّاته ، ومنه الجحيم و آفاته، فيك الموت والحيوة، ولك الثواب والعقاب، وفيك روضةٌ من رياض الجنان، وفيك حفرةٌ من حُفر النيران، كما قلتُ في المثنوي :

دَرونى بود روضه‌اى‌از بهشت	دَرونى بود حُفره‌اى‌از كِنِشت
بود سينه‌اى‌كش عمارت كنند	بهر دَم عزيزان زيارت كنند
چو قبرِ بزرگان با آفرين	ملائك طوافش كنند از كمين
دگر سينه‌اى‌همچو قبرِ يهود	پر ازلعنت ووحشت وچرك‌ودود
پرازفحش‌ووسواس‌وحرص‌ودروغ	نگيرد زانوارِ حكمت فروغ
يكى لوحى از مكتب علمِ غيب	يكى نامه‌اى‌پرز وسواس وريب
بر اين نسخه مكتوب حق شد رقم	برآن دستِ ابليس دردزد قلم

اللهم إني أعوذ بك من القبر ومنشأ عذاب القبر ، وباعثه هي البشرية التي كلها عذاب، فمالم‌يتخلّص منها لم‌يتخلّص من عذاب القبر، ﴿أَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾[٣٩/٥٤] ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ـ الآية ـ [١٣٣/٣] ، وسُئل عن بعض الأكابر من عذاب القبر فقال: «القبرُ كلّه عذاب» .

واعلم أن أول درجة من درجات السير إلى الله هو الخروج من مضيق العالم وقبر البشرية ، وغبار الهيئات النفسانيّة ، وفي الحديث عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: «من أراد أن ينظرَ إلى ميّت يمشي فلينظر إليّ» وأول ماينكشف عليه من أحوال الآخرة ويخبر بها منها هو أحوال الموتى وكشف القبور وتحصّل ما في الصدور ، وما يتمثّل للميّت فيه من الحيّات و

(١) المسند: ٩١/٦ و ١٦٣ .

العقارب والكلاب والموذيات والمعذّبات، وسؤال المنكَر والنكير .

وهذا أيضاً مما صعُب دركُه على أكثر أرباب الدقّة والبحث، والعقول الفلسفيّة والطباعيّة والدهريـة ، ولايمكنهم الايمان بـه ، لكونه فوق أطوار عقولهم، فلم يقنعوا كسائر الناس بالتقليد المحض فيه، لاعتيادهم بعدم الإذعان بشيء إلا من جهة الدليـل ، وليس للدليل إلى الأمـور الشهوديـّة والكشفيـّة سبيل، فأخذوا في التعجّب قائليـن : «كيف يجوز أن يسئل الإنسان ويخاطَب في قبره، وينزل عليه ملكان يشهدهما الإنسان ويخاطِبهما ويسمعُ كلامَهما، و لم يرهما غير الميـّت ولم يسمع شيء منهما ؟ !» وفي هذا المقـام سرٌّ عظيم لايجوز التصريح بـه إلا لمن ماتت رغبته في الدنيا ، وخرج روحُه عن هذه المقبرة السوداء .

والغرض أن الإنسان الكامل جامع بجميع مافي العالم الكبير من الجواهر والأعراض، والسماء والأرض والنجوم، والملك والجنّ والحيوان ، والجنـّة والنار والكتاب والصراط والميزان وغيرها، فهو خليفةُ الله في الأرض والسماء فله جوهر ذاته وأعراض صفاته، وسماءُ رأسه ونجومُ حواسّه وشمسُ قلبه و أرضُ بدَنه، وجبالُ عظامه وطيورُ قواه الإدراكـيّة ووحوشُ قواه التحريكية بل كل ماأوجده الله تعالى في عالَمي المُلك والملَكوت فهو مأمور بطاعة الإنسان الكامل وسجـوده لأنه خليفة الرب تعـالى ، ومظهر جميع الأسماء لقـوله : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [٤٥/١٣] وقوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [٣١/٢٠] فجميع ذرّات الكونين يسبّح له كما يسبّح لله تعـالى ، وقد ورَد في الحديث [1]: « إن العالِم ليستغفر له مَـن في السمٰوات ومَن في الأرض، حتى الحيتان في البحر» .

فجملةُ أهل الملكوت والملك ، وملائكة الله كلهم أجمعين ، مأمورةٌ من

(١) ترمذي: كتاب العلم، الباب ١٩: ٥/ ٤٩ .

الله لقـوله : ﴿ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [٢/٣٤] بطاعة هذا النائـب الربّاني والسرّ السبحاني، وله خلافتان: خلافة صغرى، وخلافـة كبرى ، فالله تعالى لما أراد بقدرتـه التامة وحكمته الكاملة أن يجعل خليـفة من قِبله في أرض الخلائق و نائباً مبعوثاً من حضرته في إنشاء الحقائق وإفشاء المعاني وبثّ الخيرات على القاصي و الداني،سخـّر لـه مافي الأرض جميعاً ليجمع لـه أسباب السلطنة الصغرى الظاهرة ـ وقدقيل: «السلطانُ ظلّ الله في الأرضين» .

وسخّر له ما في السماء ليجمع له أسباب السلطنة العظمى ، فبنى له سريراً جسمانيـاً في بيت معمور القلب ، في مملكة البدن وعالَم القالـب ، ثم أمَر الملائكة السفليـّة بطاعته وانقياده، بقوله: ﴿ٱسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فسجدَ تحت قدمه كل مافي أرض البدن وجبال العظام ، وميـاه الفم والعين والأُذُن ، وأقاليـم الأعضاء السبعة الظاهرة ـ وهي اليدان والرّجلان والظهر والبطن والرأس ـ ونجوم الحواسّ، وجحيم المعدة ، وزبانية القوى الطبيعيـّة، وعرش القلب، وكرسيّ الصدر ، وسماوات الدماغ المشحونة بالإلهامات العقليّة والمعاني الفكريـّة من جهةاللطيفة النورية ـوهي بمثابة الملأ الأعلى لهذه الخليفة والملأ الأسفل بمنزلة الشياطين وأعداء الله، والنفس الخارج من باطنه بمنزلة هيولى القابلة لبسائط الصور ومركّباتها، والحروف الهجائية بمنزلة الصوَر النوعية البسيطةالفلكية والعنصرية، والكلمات الثلاث ـ وهي: الاسم والفعل والحرف ـ بمنزلة المواليد الثلاثة : الجماد والنبات والحيوان .

فإذا تمّ له الخلافةُ الصغرى أيّده الله تعالى بجنود لم تروها لأجل الخلافة العظمى ، وسخـّر له بهذه الجنود الروحانية جميعَ عالَم الملك والملكوت. لقوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّافِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَافِي ٱلأَرْضِ﴾ [٤٥/١٣] ثم أمَر بطاعة هذا النائب الرباني وسجود هذا الخليفة الإلهي جميعَ ملائكةالكونين فسجدَ له الملائكة كلهم أجمعون، فتمّ له الخَلْق والأمر نيابة عنه تعالى ﴿أَلَا

لهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [٧/٥٤] ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾ [٢٣/١٤].

بسط كلام لتوضيح مقام

هذا الباب الرباني والعبد المقرب السبحاني والخليفة لله تعالى والمرآة لصورة الأشياء إنّما فاقَ على الكونين بشيئين: العلم التامّ بحقائق الأشياء، و القدرة الكاملة على مايشاء.

أما العلم: فعلمه منقسم إلى علمه الظاهر وعلم الباطن:

فبعلمه الظاهر يحيط بمايحتاج إليه في خلافته الظاهرة ـ من كيفية استنباط الصنائع، واستخدام الطبائع، ومعرفة تسخير الحيوانات واصطياد الوحوش والطيور من الأرض والهواء، واستخراج الحيتان بقوة التدبير عن قعور البحار، فينزل الطير بدقّة الفكر وإصابة الرأي من أعلى الجوّ، ويصطاد الوحوش بكثرة الحيل من قلّة الطود والجبل، ويستنبط بفرط الذكاء ودقّة الفهم مقادير الأفلاك وأبعادها، ويعلم بمعرفة المساحة وقوة السّباحة بروج السماء وتقاويم النجوم ومقادير حركاتها وجهاتها، وأقاليم الأرض ومقادير الجبال، ويحكم بخسوف القمر وكسوف الشمس في أوقات معيّنة وآنات معلومة، ويوضع علوماً كعلوم الآداب والشرائع والأخلاق وعلم السياسة و الحكومة، والنجوم والطب، واللغة والشعر، والحساب والموسيقى، والفال و الزجر والشعبذة والقيافة و الحيل، وجر الأثقال واخراج القنوات ومعرفة الجواهر والمعدنيّات، وعلم الادوية والنباتات المفردة والمركّبة، وكيفية دفع السموم والأمراض، وعلم الدّهقنة والفلاحة، وسائر علوم الصناعات.

وأما علم الباطن فهو معرفة الروحانيات، ومكاشفة الملائكة العلويات، والإحاطة بجواهر العقليّات والمُثل الأفلاطونيّات، والاطلاع على المبادىء

الأُوَل، وماهو أول الأوائل، والغايات الأُخَر وماهو غاية الغايات ـ وبالجملة العلم بالله وملائكته وكُتبه ورسله واليوم الآخر، والإحاطة بصورة الوجود كله ـ وبه يصير الإنسان، بحيث كأنه أحد سكّان الصُّقع الربوبي، و موضوع العالَم العقلي.

وأمّا القدرة فتمامها إنّما يظهر في النشأة الثانية، وهناك ينتج ما يكتسب هيهنا و ﴿فِيهَا مَاتَشْتَهِى أَنْفُسُكُمْ﴾ [٣١/٤١] وعند ذلك يشاهد انقياد الملائكة وطاعتهم للإنسان الكامل طاعة لله، كما في قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وفيها يتحقق خلافته لله بالحقيقة وسرّ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [٢٩/١٥].

أساس حكمي يبتنى عليه أُصول عرفانية

إن للحقائق المتأصّلة عوالم ونشئات، ومظاهر وتمثّلات، وجميعها ممّا يوجد في المسجد الجامع الإنساني؛ وهو صومعة أهل الذكر والتسبيح، و معبد الخلائق كلّهم؛ فمنها الجنة، فإن حُسْن خُلقه الواسع جنّة عَرضُها كعرض السماء والأرض، وسوء خُلقه الضّيق جحيمه، وأعماله الحسنةُ هي الصّور الجنانيّة، من الأنهار والحور والقصور، وأعماله القبيحة صورة النيران و الحيّات والموذيات، والحميم والزقّوم.

وهذه الصفات والمَلكات الجميلة والرذيلة والأعمال والآثار الحسنة و القبيحة إنما هي أصل مايُشاهدها الإنسان في الآخرة، وبذر مايوجد ويتحقق في العقبى، وجوداً وتحققاً أتمّ وأثبت من وجود هذه الصوّر المادية الدنياوية فيتنعّم بها السعداءُ، ويتعذّب بأضدادها الأشقياءُ، ولأهل الجنّة اقتدار على احضار مايشتهون، واستحصال مايذوقون، لهم فيها مايدّعون، نزلاً من غفور

رحيم ، وفيها ماتشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، حتّى أن أدنى أهل الجنـان و أبلَههم يأكل في لحظة مقدار مايأكل جملة أهل الدنيا من غيرملال و كلال، و يوجد لهم في لقمة واحدة لذّات سبعين طعاماً من أطعمة الدنيا وحلاواتها .

وهذه جنّة العموم ـ حتى البُلْه وغيرهم ـ وأما جنّة المحبيّن لله فهي ماعبـّر عنهابقوله تعالى : ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَادِي وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ و[٨٩/ ٣٠] وقوله[١] : « اُعدّت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا اُذن سمعت ، ولا خطـرَ على قلبِ بَشَر » .

والحاصل أنّ هذه الدرجات الجنانيّة العالية، ومقابلها من الدّركات الجحيمية النازلة:حاضرة مع هذا الإنسان في الدنيا،والخَلق غافلون عنهما إلامن أيـّده الله بالكشف التامّ ، فيرى معهم وفي إهابهم مالايرى أنفسهم ﴿اُولٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [٤١/ ٤٤] ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [٢٦/ ٩١] ﴿وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [٨٢/ ١٦] .

واعلم أنّ الحق تعالى إله واحد ، ورازق واحد، وباسط واحد . ينزل منه فيضٌ واحد ينبسط على الكل بقدر واحد من جانبه ، لكن يختلف باختلاف الأذواق والمشارب ، قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً﴾ [١٥/ ٢٢] وقوله ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [١٣/ ٤] فمنه عذْب فرات ، لصفاء المحل وسلامة القلب ، ومنـه ملْح اُجاج ، لكدورة المحل ، بسبب المعاصي والآثام .

والاسم الجامع للجنة والنار العام لجميع مراتبهما الموجود في العالَم الكبير والصغير ومافوقهما هو«الوصال للمحبوب» و«الفراق عنه» فجنة السعداء في الحقيقةهي وصولهم إلى مايشتهون ويحبون ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنْفُسُ﴾ [٤٣/ ٧١]

---

١) حديث قدسي معروف وجاء في الاكثر بلفظ : اعددت لعبادي.

وجحيم الأشقياء هي فراقهم عن مشتهيات الدنيا ولذاتها الباطلة ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَايَشْتَهونَ﴾ [٣٤/٥٤] وأما جنة المقربين فمشاهدة معبودهم ، ومقابلها -وهو الاحتجاب-جحيمُ المبعَدين ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [٨٣/١٥].

قال بعض المحبّين : «العشقُ هو الطريق ، ورؤية المعشوق هي الجنة ، والفراق هوالنار ، نارُالله الموقَدة التى تطّلعُ على الأفئِدة» .

واعلم أنمذهب العشاق وطريقهم غيرمذاهبالناس وطرائقهم ، وحركة العشاق وسعيهم غير حركات الناس ومساعيهم،فاعلا وغاية ، حيث أن محرّك العاشقين جذْبة الحق التي توازى عملَ الثقلين ، وغاية سعيهم وسفرهم ومنتهى حركاتهم لقاء اللهتعالى ، وجحيمهم هوالاحتجاب عنه « الجار ثمّ الدار » وإنّما يريدون الجنة وما قرب إليها من قَـول وعمل ، لِما فيها ظِلال وَجهه وأشعّة نورجماله .

ومما ينبّه على هذا الدعوى أن رؤية الشمس شيءٌ ورؤية شعاعها شيءٌ آخر ، إلاأن الشمس لاتعرف ولاتهتدى إليها إلابالشعاع ، وهـذا مثال إرادة العارف للأشياء ، وطاعته لمن سواه ، وهيهنا مثال آخر ، أوضح من هذا عند أصحاب الفكر والخيال: إن رؤية القمر فيالماء شيءٌ، ومعاينة وجه القمر ليلة البدرشيءٌآخر ، فمن رأى وجهَ القمرفيالماء فقد رآه،إلاأنه رآه مع حجاب من وَهمه، وهكذا قلبُالعارف كالمرآة التي يترائىفيها سرُّالله، كماقال بعضهم: «مثل القلب كالمرآة ، إذا نظرفيها تجلّى ربُّه» .

وكان في مصحف ابنمسعود رضى الله عنه : «مثَل نوره في قلب المؤمن كمشكوة فيها مصباح» فانظر كم بين قلب منوّريشاهد فيهانوروجه الله ، وبين قلب مسود منكوس كان عشّ الشيطان ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً

مِنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [٨٢/٢٧] .

* * *

ولنعُدْ إلى ما كنّا بصدده ، وليعذرني أبناء العقول السليمة ، فإن الكلامَ يجرُّ الكلامَ ، وارتحلنا به إلى هذا المقام ، وكان كلامنا إن للحقائق أمثالاً في العوالم بل بناء كل عالَم على وجود المظاهر والأمثلة ، فإن جميع صوَر هذا العالم أمثلة لِما في العالَم الأعلى، يظهر للنفس الإنسانية بواسطة مرائي الحواس ومظاهر المشاعر ، بل كل من كان في عالَم من العوالم ، يكون ذلك العالم شهادة عنده حاضرةً لديه، وغيره غيباً عنه محجوباً عن نظره ، والخلق وثوقهم واعتمادهم على ثبوت الصوَر الموجودة في هذا العالَم ، دون غيرها من الصور الموجودة في عالم آخر أعلى من هذا العالَم، لاختلاطهم بالحواسّ وامتزاجهم بالمحسوسات، والعرفاءُ بخلافهم .

كما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال :[١] «أنا أعرَفُ بأحوال السماء من أحوال الأرض» وقول النبي صلى الله عليه وآله :[٢] «أطَّت السماءُ، وحقَّ لها أن تَئِطَّ. ليس فيها موضع قدم إلاّ وفيه [ملكٌ] ساجد وراكع» صريح في أنه صلى الله عليه وآله قد عَلم أحوال كل شِبر من أشبار السماء، وما تعلق بها من نفس وعقل عبّر عنهما بالساجد والراكع .

والعامة والظاهريون من العلماء إنما اعتمادهم على صوَر هذا العالم ، لعدم استطاعتهم على تجريد كل صورة عن جميع خصوصيات المواد ، فإذا تجردت صورة عن بعض خصوصيات المادة التي عاهَدوها فيوشك أن ينكروها ، لإلفهم بالمادة المخصوصة، واعتيادهم بالصوَر المحسوسة ، وأما العالِمُ الراسخ فكلّما

---

١) فى نهج البلاغة (الخطبة : ١٨٧) «انا بطرق السماء اعلم منى بطرق الارض» وجاء ايضا بلفظ آخر فى الغرر و الدرر للامدى (باب السين – سلونى) .

٢) الدر المنثور : ٢٩٣/٥ والمسند : ١٧٣/٥ .

كانت الصورة أخلص جوهراً من المواد ، وأجود وجوداً من الأغشية كانت أشدّ تحققاً عنده وأقوم ثباتاً وأدوم بقاء .

تأييد

أما قرع سمعك ماروي عن النبي ﷺ أنه قال : [1] «إنّ في الجنّة سوقاً تُباع فيه الصوَر» ونقل عن بعض الصلحاء أنه قال: «رأيتُ ربّي في المنام على صورة أمّي» وعبّر المعبّر «الربّ» بالآيات القرآنية، و«الأمّ» بالنبي ﷺ وعنده أمّ الكتاب وهذا ضرْب من التمثيل ـ ورؤيةُ النبي ﷺ جبرئيلَ تارةً في صورة أعرابي وتارةً في صورة دُحية الكلبي ، وتارةً في صورة عظيمة كانه طبّق الخافقين ، كل ذلك من التمثيلات المختلفة بحسب المقامات المتفاوتة، والنشئات المختلفة وإلا فجبرئيل حقيقة واحدة ، وإنما اختلافه بحسب اختلاف العوالم والنشئات.

وعلى هذا القياس ، الحكايات الواردة في باب النبي ﷺ ورؤيته ربّه ، ورؤية سائر الأنبياء والأولياء عليهم السلام ربّهم على أنحاء مختلفة متفاوتة في الظهور والخفاء، بحسب ثخانة الحجاب ورقّته .

ومن جملة الحجب هوية السالك ـ «وجودُك ذنبٌ لايقاس به ذنبٌ» ـ وتعيّنه الموسوم بجبل موسى عليه السلام ، فما لم يفنِ السالك عن هويّته ولم يرتفع من البين جبلُ تعيّنه ، ولم يضمحل، اضمحلال الجمدوذوبان الثلج عند استيلاء قهر شمس الحقيقة عليه ، لم يشاهد ذاتَ الحقّ تعالى ، وأول مايجب على السالك الذاهب إلى الله بقدم الصدق والمعرفة ، أن يرفع من طريقه أذى هويّته التي هي من جملة الآفلين ، وإن تطورت في أطواره بصورة الطبيعة والنفس والعقل ،

---

١) الترمذي : باب صفة الجنة ، الباب ١٥ : ٤/٦٨٦

كالكواكب والقمر والشمس حتى يصدق كالخليل في دعواه : ﴿وَجَّهتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً مُسْلِماًوَمَاأَنَامِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [٧٩/٦] .

ومن علامات ولاية الله تعالى تمنّي الموت كما قال سبحانه : ﴿ يَاأَيُّهَاٱلَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٦/٦٢] .

وممن شكى عن أذى هويته التي يجب على كل مسلم بمقتضى إسلامه إماطة أذاها عن طريق المسلمين ـ من قلبه وروحه وسرّه السالكين إلى الله تعالى ـ هو أبويزيد البسطامي حيث قال : «البشريّة ضدّ الربوبية ، فمن احتجب بالبشريّة فاتته الربوبية» وكذا الحسين بن منصور :

اقتلوني يا ثقاتي　　إنّ في قتلي حياتي

أولاترَى أن المؤمنين حمَدوا الله وشكَروه على خلاصهم عن البشرية كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [٣٤/٣٥] .

تذكرة

واعلم إن معرفة أحـوال الموتى و ذِكْـر الموت مـن أعظم العبادات لأنّ حجاب البشريّة أعظم الحُجب ، ورفعهُ من أهمّ الامُور ، ولهذا امتحن اللهُ قلوبَ الناس بتمنّيه في قوله: ﴿فَتَمَنَّوا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٦/٦٢] وفي الحديث عنه ﷺ [١] : « انّ القلوب تصدءُ كما تصدءُ الحديدُ ، وجلائُها ذِكْرُ المَوت وتَلاوةُ القرآن» .

---

(١) قال العراقي (تخريج أحاديث الاحياء : ٢٧٣/١) : أخرجه البيهقي من حديث ابن عمر .

وإن سئلـتَ الحقّ فلا يزول رَيْن البشريّة وغين التعيّن عن القلـوب إلا بجذْبة من جذَبات الحقّ ـ التي تُوازي عمل الثقلين ـ فانظر في أنه إذا لم تخل مرآة قلب سيد الكائنات ، وأشرف الممكنات عن أصدية الالتفاتات وغيون التوجهات إلى هذا العالم حتى احتاج لحفظ مقام القرب والعبدية إلى الاستغفار في اليوم بليلته سبعين مرة ـ كما جاء في الحديث المشهور [1] ـ فمَن الذي خلصت مرآته ، ونقيت ذاته عن أوصاف البشرية بالكلية بمجرد الاكتساب والعمل من غير جذبة ربّانية ؟

ولا يبعد أن يكون قول بعض المشايخ حيث قال : «الصوفي هو الله» إشارة إلى نحو هذا ، أي : التّصوف والتّجرد عن رقّ النفس وعبوديّة الهوى ، و الاقبال بالكليّة إلى الحقّ ، إنّما يحصل بمحض جُود الله وإمداده فـي حق السالك المعتصم بحبله المتين ، مثل القـاء الله الإلهامات المتتالية في قلبه ، و إفاضة المعارف المتواردة على سرّه ، ليجرّه بالتعويد من عالَم البشريّة إلى عالم الربوبية ، وذلك معنى قوله : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [١٨/٦٥].

ومن هيهنا ينكشف أن العبادة من غير العلم لاوَزن لها ولاقيمة ، وسَعْي غير العارف كحركات الأموات والجمادات لاقصد فيها ولامعنى لها ولاطائل تحتها ، كالحركة بالعرض ، فإن كل حركـة تكون غـايتها من جنس مبدئها كما يظهر بالقياس والاستقراء ، وقد ثبت أن الغاية هي عين الفاعل بوجه الكمال ، فمبدء الحركة إن كان طبيعة تكون غايتها أمراً طبيعياً كالوصول إلى الحيّز الطبيعي ، وإن كان أمراً حيوانياً فغايته أمرٌ حيواني كالأكل والشُرب والشهوة والانتقام ، وإن كان مبدءاً روحانيّاً فغايتُه الوصولُ إلى عالَم الملكوت كالمعارف الأُخروية وإن كان أمراً إلهيّاً ، فغايتُه القُرب والمنزلة عند الله بفناء النفس عن ذاتها و

---

(١) ابن ماجه : كتاب الادب ، باب الاستغفار : ١٢٥٤/٢ .

بقائها بمبدئها وغايتها .

فلو لم يأمر الله عبدَه ولا يأذن داعي الحق له في الدخول في بابه والوصول إلى جنابه في مثل قوله : ﴿يَاأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [١/٧٣] فمَن الذي يقوم من نومه للصلوة أكثر الليل ، ويصوم كلّ النهار ؟ وكان رسول الله ﷺ قبل البعثة يسهر ليله ويظمأ نهاره، ويقوم للعبادة في جبل حراء، حتى تورّمت قدماه ، وكان يقول: «قُرّةُ عَيني في الصلوة» وذلك لغاية أنسه بذكر الله وعبادته ، لأجل معرفته و علمه بثمرة العبودية ، وهي غاية الربوبية ﴿فَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [٩٩/١٥] فالله سبحانه كان محرّكه وداعيه، ومربّيه وراعيه ، لاشيء آخر دنيوي أو اُخروي .

ولهذا سمّاه «يتيماً» في قوله ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ أي في جنة القدس وجوار الله وقربه ، وإليه اشير بقوله ﷺ : «أنا وكافِلُ اليتيم كهاتين في الجنة»ـ وجمع بين السبابة والوسطى ؛ وإلا فهذا العالـم منزل الأنعام والدوابّ ، «و هذه الدنيـا جيفةٌ وطالبها كِلاب» فكيف يكون مأوى أشرف خلق الله ، و إنما الدنيا كمنزل راكب وفيء زائل «وهذه دار من لادار له» وفي الحديث عنه ﷺ[١] : «مامثَلي ومثَل الدنيا ، إلا كراكب استظلّ (قال ـ نزل ـ ن) في ظلّ شجَرة، ثمّ راحَ وتركَها» وإنما جاء رسولُ الله ﷺ إلى هذا العالَم لهداية الخَلق ونجاتهم ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ ٱللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [١٥/٥] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [١٠٧/٢١] .

ذِكْرٌ تنبيهي

بل نقول محرّك جميع الموجودات هو الباري جلّ ذكره بعشقه الساري

---

(١) ابن ماجه : كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا : «انما أنا والدنيا كراكب ...» ١٣٧٦/٢ :

في جميع الذرّات ، ولكن بعضها بتوسط بعض ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ـ إلى قوله :ـ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [٧/٥٤] .

واعلم أن العالَـم كلّه كشخص واحد رقّاص علـى اختلاف أوضاعه ، و فنون حركات أعضائه ، بعضها بالسرعة وبعضها بالبطؤ ، وبعضها بالايماءاليسير وبعضها بالسكون ، فيرقص ظاهره ويهتزّ باطنه فنوناً مـن الرقص والاهتزاز بحسب الحركه الطبيعية والنفسية والعقلية ، لدواعي مختلفـة وأغراض متفاوتة متفاضلة في الدنوّ والعلوّ ، تقرّباً إلى مبادي مختلفة في العلوّ والشرف والجمال حتى ينتهي إلى الغاية الإلهية الأخيرة للمبدء الأول الفعّال ، البريء بالكلية من النقص والزّوال في الموضوع القابل المحمدي عليه وآلـه أفضل الصلوة و أكمل الرحمات ، فالصلوات والرحمات بمنزلة الصوَر المترادفة على موضوع الحركة ، التي قيل في تعريفها : «إنها كمال أول لما هو بالقـوّة من حيث هو بالقوة » .

وقس عليها حال الغاية والفاعل والقابل ، فتحقّق بقول من قال : «إن مَن زعم أنّ محمداً رأى ربَّه فقد أعظَم على الله الفِريةَ » .

إزاحة شك

وإذا تحقـّقت بما ذكر زال عنك إشكال التناقض بوجه آخـر بين قول النبي ﷺ[1] : «نورٌ أنّي أراه» وبين قول أمير المؤمنين عليه السلام[2]: «رأيتُه فعبدتُه

---

(١) مضى في ص٣٥٢.

(٢) في الكافي : كتاب التوحيد ، باب في ابطال الرؤية : ١/٩٨ : «ما كنت أعبد ربا لم أره» .

لم أعبد ربّا لم أره» و كذا التخالف بين ظاهرَي كلامين نقلا عنه صلى الله عليه وآله في باب الرؤية ، أحدهما قوله لبعض أزواجه : «ما رأيتُ ربّي على إنّيته وحقيقية» والآخر قوله عليه السلام لابن عباس : «إنّي رأيتَهُ على صورة التّمثيل» ومن أبواب التّمثيل قوله صلى الله عليه وآله [1] : «أول ما خلق الله نوري» وقوله [2] : «من رآني فقد رأى الحقّ».

وبما قرّرنا بيانَه وأحكمنا بنيانَه آنفاً ظهر صدق قول أساطين الحكماء : «إن القائل والحاكم بأنّ الله موجودٌ هو نحو من البرهان الشّبيه باللّمّ ، لا العقل» ويؤيده قوله صلى الله عليه وآله : «تفكّروا في آلاء الله ، ولا تتفكّروا في ذات الله» [3] لأن الفكرة لا يتسلط على باريء الكل ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [٢٠/١١١] فذاته تعالى ممّا يستحيل لأحد الاكتناه و الاحاطة به ، وليس لأحد فيها قدَم ـ أي مقام ـ ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ﴾ فلا يرى ذاتَه إلا ذاتُه .

وفي الأدعية النبوية : «بك أُحيى وبك أموت» .

ومن هذا ظهر قول ذي النون المصري : «رأيتُ ربّي بربي ، ولولا ربّي لما قدرتُ على رؤية ربي» وقول أبي الحسين المنصور : «ما رأى أحدٌ ربّي سوى ربّي» .

---

(١) مضى في ص ١٣٣ .

(٢) الجامع الصغير ١ / ١٣٢ .

(٣) راجع الكافي : باب المنهي عن الكلام في الكيفية : ١ / ٩٢ .

ختمٌ و وصيّةٌ

إني قد أشرت لك ـ ياحبيبي ـ فيهذه الفصولإلى كنوز الحقائق ورموز الدقائق ، فاعلم قدرَها وتعمّقْ في غَورها ، وصُنْها عن النفوس الشقيّة الجاهلة بحقائق الايمان ، الكافرة بأنعم الله ، لأنـّهم أعداء الحكمة ورفَضة العرفان ، و أحبّاء الهوى والشيطان .

واعلم أن تصوير الحقائق فيصورة الألفاظو كَسوةالعبارات والاستعارات ليس إلا كجرعة من دن ، لا ـ بل كقطرة من بحرلجّي ، أو كشعاع من شمس؛ وإنّما اثبتُّ لك هذه المعاني ـ فثبّتْ بذرَها في أرض قلبك وإن كانت فوق رتبتك ـ لأمرين : أحدهما ما ورد [1] : «إن شر النـاس من أكل وحده» . و الآخر رجائي بظهور من يعرف قدرَ هذه المعارف من أولادي الروحانيين ، وبروز من يتجرّد عن غشاوة هذه الأقران السوء و آرائهم الخبيثة من أهل القرابة المعنويّة ، فعليك وعليهم بذوق معاني هذه الكلمات بنفوس زاكية ، وأذهان نقيّة ، وقلوب صافية ، وأسماع واعية «فخير القلوب أصفاها ، وخير الأسماع أصغاها وأوعاها» قال الله تعالى : ﴿لَو كُنَّا نَسْمَعُ أَو نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [١٠/٦٧] ولابـّد بعدها أيضاً من الزهد في الدنيا ، وتركها لبنيها و أهاليها .

واعلم أنمن ركَن إلى الدنيا ومالَ إليها أحرقه الله بناره ، فصار رماداً تذروه

---

(١) في البحار : باب ذم الاكل وحده : ٣٤٧/٦٦ : لعن رسول الله (ص) ثلاثة الآكلزاده وحده ...

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرياح ـ وكان على كـل شيءٍ مقتدراً ـ وهذه صفة أرباب الملك وأصحاب الدنيا . ومن رَكَن إلى العُقبى ومال إليها أحرقه اللهُ بناره ، فصار ذهباً خالصاً ينتفع به ، وهـذه صفة أهل الآخرة وأرباب الملكوت وأصحاب الجنّة ومن ركَن إلى الله ومال إليه أحرقه اللهُ بنوره فصار جوهراً فريداً لا قيمة له ، ودرّة يتيمة لا مِثْل لها في الدنيا والآخرة ، وهذه صفة أهل الله وأحبّائه واوليائه .

وقد أشرنا لك أن العوالم والنشئات ثلاثة : عالَم الحسّ والدنيا ، وعالَم الغيب والعقبى ، وعالَم القدس والمأوى ، والمسافرين ثلاثة أصناف : صنف يسافر في الدنيا ورأس ماله المتاع والثروة وربحه المعصية والندامة ، وصنف يسافر في الآخرة ورأس ماله العبادة ، وربحه الجنّة ، وصنف يسافر إلى الله تعالى ورأس ماله المعرفة ، وربحه لقاء الله .

واعلم أن المعرفة أصل كلّ سعادة ، والجهل أسّ كل شقاوة ، فإن سعادة كل نشأة وعالَم ، هو الشعورُ بمافيه ، حتى أن الدنيا ومافيها ـ مع حقارتها وقلّتها وبطلانها ـ أنما ينال اللذّة فيها من كان أبلغ في الحواسّ ، وأقوى في المشاعر الحيوانية ، فإن كل لذّة هو نيل مايلائم بشيء من حيث هو ملائم له ، والألَم فَقْده أو نيل مايضادّه .

فإذا كانت البهجة واللذة في هذه الدنيا الدنيّة ، منوطة بالمعرفة والشعور ، فماظنّك بعالَم الآخرة التي قوامها بالنيّات والمعارف ، ثمّ ماظنّك بعالَم القدس الذي هو معدن العقول ومنبع المعارف ، فعليك بالحكمة والمعرفة .

وأما الزهد والتقوى وسائر العبادات والرياضات فإنما هي كلها لإعداد الحكمة ومقدمـة المعرفة وتصفية الباطن وتهذيب السرّ وتصقيل مرآة القلب عن الغشاوة والرَين ـ حتى تصير مجلوّة يحاذى بها شطرَ الحق ويترائى فيها

---

١) الجامع الصغير : ١٣١/٢

وجه المطلوب ـ وأما نفس الصفاء والصقالة فلكونها أمراً عدمياً ليست مقصودة بالإصالة ، بل لأجل مايظهر بها أو يتصور فيها من آيات الحقّ وجلايا وجهه على أن الزهـد في الدنيا ـ على أيّ وجه كان ـ لاشيء محض ، لكون الدنيا لاشيئاً محضاً، والعاقل لايزهد في اللاشيء ،وفي الحديث عن رسول الله ﷺ[1]: «لو كانت الدنيا تزن عند الله بقدر جناح بعوضة ، ماسقى كافراً منها شربة ماء» وفي القرآن : ﴿وَمَا الْحَيوةُ الدُّنيا إلّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [۳/۱۸۵] .

ومدّة الحيوة الدنيا بالقياس إلى دوام الآخرة كلحظة ، وسعة مكانها بالقياس إلى مكان الآخرة كذرّة ﴿كَأَنَّهُمْ يَومَ يَرَونَهَا لَـمْ يَلْبَثُوا إلَّا عَشِيَّةً أوضُحَاهَا﴾ في الحديث عنه ﷺ : «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل أحدكم غمس إصبعه في اليمّ فلينظر بمَ يرجع» فترك هذا القليل واجبٌ وليس بزهد في الحقيقة، وإنما ورائها عالم آخرٌ بل عوالم أخرى ـ إليها رُجعى الطاهرات من النفوس ﴿وَلَلآخِرَةُ أكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ [۱۷/۲۱] .

فمن أراد أن يعرف عظمة الله وعظمة أسمائه الحسنى ـ التي يكون عالم الآخرة ظلالها ، وهذا العالم ظلال ظلالها ـ ويجد من رحمة الله نصيباً أكثر وحظاً أوفر فليزهد عن الآخرة، وليزهد عن الزهد فيها أيضاً، حتى يخوض لجّة الوصول ، ويخلص عن نفسه وقلبـه بالكلية ، وقيل : الزهدُ في الدنيا يُريـح النفسَ ، والزهـدُ في الآخرة يريح القلبَ ، والإقبالُ بالكلية إلـى الله يريح الرُوحَ .

واعلم أن العوالم والنشئات الوجودية بمنزلة طبقات بعضها محيطة ببعض والسالك إذا صعد من عالم وولَج في عالم آخر ،كان كأنه ماتَ من الأول ، وتولّد في الثاني، قال عيسى ﷺ : «لن يلجَ ملكوتَ السمواتِ من لم يولَد مرّتين».

ومن هيهنا يعلم أن الكوكب ـ وهوصورة الطبع والحسّ التي هي أول النشئات الحيوانية ـ والقمر ـ وهوصورةالنفس التي هي أول درجات الإنسان السالك ـ والشمس ـ وهي صورةالعقل التي هي آخرمنازل عالَم الإمكان ـ إشارة إلى صوَر العوالم الثلاثة ، كان السالك في أول سلوكه في واحد منها بحسب رغبـة النفس وهواها ثمّ مات عنه اختياراً ودخل في الثاني ، ثمّ ماتت رغبتـه عنه ودخل في ملكوت السموات لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [٦/٧٥] ثمّ ماتت رغبته عن الكل بقوله : ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [٦/٧٦] وفنَى عن نفسه بربّه ووجّه وجه ذاته لفاطر سموات العقول وأرض النفوس، حنيفاً عن آثام الوجود والهويّة، مسلماً حقيقياً موحّداً له تعالى من غير إشراك لغيره، وإن كان هويّة السالك وهواه التي مازالت هي المعبود إصالة في كل عبادة ومحبة لغير الله ، كمادلّ عليه قوله : ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [٢٥/٤٣] فصار الحقّ عند ذلك الفاعلَ والغايةَ له في كل فعل وسعْي وحركة، وانعزل مبادي حركاته من القوى المدركة ـ كالسمع والبصر ـ والمحرّكة كاليَد والرِجل ، سواء كانت داعية أوفاعلة .

فله حينئذ أن يقول: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [٦/١٦٢] وله أن يقول [١] :«مَنْ رآني فقد رَأى الحقّ» حيث صار الحقّ سمعه وبصره ويـدَه ورِجله ـ كما في الحديث المشهور ـ لظهور الحق في مرآة قلبـه .

وإليه الاشارة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [٦٦/٨] وقوله تعالى ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [٦٦/٨] وفي الأدعية النبوية [٢] «اللّهم

١) مضى فى ص٤٢١ .

٢) جاء مايقرب منه فى البخارى : كتاب الدعوات باب ٩ : ٨/٨٦ : راجع ايضا المعجم (نور) ٧ / ٢٠ .

اعطني نوراً في قلبي، ونوراً في سمعي ، ونوراً في بصري ، ونوراً في مخّي ونوراً في دمي ــ حتى قال : ــ ونوراً في شَعري ونوراً في عظامي ، ونوراً في قبري» وفيها أيضاً : «يانورُ النور ويامدبّر الامُور، وياعالماً بما في الصدور».

وذلك نوروجهه وذاته ، فاعل جميع الموجودات ، ونور مافي الأرض والسموات ومنتهى كل الخيرات وغاية ارتقاء الموجودات ﴿وانّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَىٰ*وانّه هوأضحك وأبكى* وانه هوأمات وأحيى* وانّه خلق الزّوجين الذّكر والأنثى *من نطفةإذا تمنى * وانّ عليه النشأة الأخرى ﴾[٥٣/٤٢ ــ ٤٣] وبه يؤمن كل مؤمن ﴿شهدالله انه لااله الاّهووالملائكة واولوا العلم قائماً بالقسط﴾ [٣/١٨] .

ومن أسمائه « المؤمن المهيمن » فإن «المؤمن» إذا قطع النظر عن هويّته وايمانه وعرفانه وآثر المعروف وبقي بلاهو، وعلم أن لاهوإلاّهو، فيتبدّل ايمانهُ بعيانه ، وخرج هومن البين ، وفنى في العين وبقى ملك الوجود اليوم لله الواحدِ القهّار ، فشهد ذاته على ذاته بالأحدية المطلقة ، والفردانيّة المحضة: ﴿لااله إلاّ هو﴾ وشهد أيضاً ذاته بلسان الملائكة واُولي العلم قائماً بالقسط والعدل ، وهو إحقاق الحقّ من بقاء وجهه ، وفناء الوجوه الإمكانية .

وهذا هوالايمان الحقيقي المأموربه في قوله عزاسمه ﴿يَاأَيُّهَاالَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [٤/١٣٦] وإليه الإشارة بقوله : ﴿مَن يُؤمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبه﴾ [٦٤/ ١١] .

وبهذا الايمان يحسم مادّة الشرك الخفي عن القلب: ﴿لئِنْ أشركتَ ليحبطنّ عملك﴾[٣٩/٦٥] وهذا الخفي من الشرك قلّ من الناس من نجى عنه وصفى قلبه عنه ﴿ومَايؤمِنُ أكثرهم بالله إلاّوهُمْ مشركُونَ﴾ [١٢/١٠٦] فأنتَ ياأخي مادمت معك فكيف يمكنك الصبر بالله وفي الله ومع الله ؟ وإذا توكلت عليه

فهو حسبك ونعم الوكيل .

واعلـم أن طلّاب الحقّ طلبوا الحقّ بالحقّ فوجدوه ، وطلّاب الهـوى بالهوى فلم يجدوها ـ ولن يجدوها أبداً ، فماذا بعد الحق إلا الظلال؟ ـ فإن لم تسمع هذا الكلام منّي ولم تصدق بفحواه فاسمع وتدبّر فيما روي عن النبي ﷺ من قوله : «إن المؤمن أخذَ دينَه عن الله ، وإن المنافق نصَبَ رأياً واتّخذ دينَهمنه » وقوله : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [٥٠/٢٨] وقولـه سبحانه : ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾[٧٩/٣] .

والحق أن المؤمنين بالحقيقة والمتّقين العابدين المخلصين لله ولرسوله ولأولي الأمر هم الحكماءُ الربانيّون ، الراغبون عن الدنيـا ، وغيرهم عبيدُ الهوى ، وعبّادالأصنام ، وأولياء الطواغيت وصورالأجسام ، وأصحاب القبور وسكّان عالم الدثور ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أعاذنا الله و اخواننا أينما كانوا من الاغترار بالصور الباطلة ، وظواهر الآثار ، والركون إلى مراتب أهل الحجاب ومنازل الأشرار ، والتّستّر بستر التّقييد . وغشاوة الامتراء ، والشكّ والانحراف عن المحجة البيضاء .

* * *

هذا آخر ماقصدنا إبرازه ، وحاولنا إظهارَه .

كتبه مؤلّفه الجاني محمد بن إبراهيم المعروف بالصدر الشيرازي

حامداً مصلياً مستغفراً في شهر ربيع الثاني لسنة ألف وثلاثين